إجازة ليوم واحد

(من قصص الحرب على سورية)

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الإلكتروني

E ـmail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي

عيسى إسماعيل

إجازة ليوم واحد

(من قصص الحرب على سورية)

قصص قصيرة

منشورات اتّحاد الكتّاب العرب
دمشق

سلسلة القصة (3)
2021

الإهداء

إلى شهدائنا الأبرار...

إلى جرحانا الأبطال...

إلى قادتنا في الحرب والسياسة

وإلى شعبنا العربي السوري الصّامد...!!

عيسى...

تمهيد

هذه القصص، عشتُ بعضها، وسمعت بعضها الآخر...!!

هي من قصص الحرب الكونيّة الإرهابية التكفيرية على سورية، تنضح بالمأساة، حيث جرائم العصابات الإرهابية التكفيرية ضد البشر والحجر. ولكنها، أيضاً، وهذا هو الأهم، تعبير حيّ عن الصمود الأسطوري للسوريين الذين كتبوا بالدّم ملحمة الانتصار على الإرهاب...!!

حفل عشاء...!!

جلسا وجهاً لوجه التقت عيناه بعيني ابنه، أشاح مبارك السّالم نظره ثم انطلق صوته هادراً:

"اسمع يا راسم... لو لم أكن موقناً أن أمّك امرأةً شريفةً وطاهرة مائة بالمائة لقلت إنّك "ابن حرام "..!!. ولو لم أكن على يقين أنّني لم أقصر في تربيتك لوقفت أمام الناس وقلت:

" أنا متّهم.. أنزلوا العقاب الذي ترونه مناسباً لي..!! أنا مبارك السالم، الأديب الروائي الذي يعرفه الوطن العربي كلّه، وبعض الأوطان الأخرى... يقال إنّ ابني عاقّ وخائن..!!"

"أنا معارض... أنا لست خائناً.!!"

يردّ الشّاب الملتحي بصوتٍ أقوى من صوت أبيه ثم يتابع بصوتٍ متوسل:

"أبي.. أرجوك لنؤجل الحديث.. لقد دعوت عدداً من رجال المعارضة المقيمين هنا إلى عشاءٍ على شرفك.. لنبحث الشأن السّوري.. أرجوك لا تضعني في موقف حرج..!!".

شريط مؤلم من الذكريات. كانت رحلةً فاشلةً. بل أول رحلةٍ فاشلةٍ له خارج سورية، لم يأت لحضور مهرجان ثقافي أو ليوقع كتاباً له.. بل، وهنا المفارقة المؤلمة، جاء ليقنع ولده بالعودة إلى البلد.. والكف عن هذه التهريجات التي لا تنفع الوطن ولا ابنه، ... معارضٌ قال..!! معارضٌ لمن؟!! ماذا تريدون بالضبط؟! "

امتلأت الغرفة الكبيرة بأشخاص لم يسمع بأسمائهم من قبل، وكان لابدّ أن يكرر السؤال أمامهم:

"ما الذي تريدونه بالضبط.. ما معنى معارضة خارجية؟! لماذا لا تعارضون وأنتم في سورية؟! أنا مبارك السالم.. أنا معارض.. أكتب وأنتقد.. وأطرح أفكاراً.. ولم يطرق باب منزلي أحدٌ ليقول لي:"ما أحلى الكحل في عينيك؟! "

نظر الحضور إلى بعضهم البعض باستغراب!! هل دعاهم راسم السالم ليسمعوا هذا الكلام؟!! ألم يأت والده ليعلن انشقاقه من هنا؟!! "

قال الرّجل البدين الجالس أمامه حول المائدة:

"يا أستاذ أنت علمٌ وطنيٌّ كبيرٌ.. نريدك معنا في المعارضة فأنت تعطي دفعاً كبيراً لنا.. كلّ شيء جاهز لإقامتك هنا: منزل وسيارة وراتب شهريّ ممتاز.. وإذا شئت ننتخبك رئيساً لحركتنا..!! "

أصبح وجه مبارك السالم مصبوغاً بالحمرة.. انتفخت أوداجه..

"يا أخ.. ما عملك بالله عليك..؟!! "

"وَلَوْ.. ألمْ تسمع باسمي سرحان العالي.. رجل أعمال..!!"

"يا أخ سرحان.. أتذكّر هذا الاسم.. ألم تبدأ رحلة أعمالك من سورية؟! ألم تكسب شهرتك وأموالك منها؟! ما الذي يدفعك للخروج والإقامة والعمل هنا.. وفوق ذلك تشتم أنت وجماعتك البلد.. مازال سؤالي بغير جواب:

"ما الذي تريدونه بالضبط؟!!"

زمّ سرحان شفتيه. لم يقلْ شيئاً. وبعد صمتٍ قصيرٍ فتح فمه ليقول:

"لا... ولكن!!".

"أعرف أنا ماذا تريدون... السلطة.. هذا حق لكلّ سوري.. ولكنّ أبناء لبلد لا يريدونكم... بالله عليكم قولوا من أين تأتون بالمال لتعيشوا هذا الترف؟!! تذاكر طيران من درجة رجال الأعمال... بيوتٌ فاخرةٌ مفروشة.. أنا أعرف أن ابني هذا خرج ولم يكن معه سوى مبلغ زهيد دفعَهُ ثمناً لتذكرة الخروج...!!".

كان العشاء فاخراً... سمك وشواء من كلّ نوع... زجاجات الويسكي... المقبلات من كل نوع... النبيذ... العرق... حلويات

متنوعة... رفع سرحان كأساً كبيرة من الويسكي الممزوج بالثلج وقال:

"كأس أديبنا الكبير...!!". رفع الجميع كؤوسهم فرفع مبارك كأس العصير.. وهو يقول: شكراً... شكراً!!.

هواء منعش يأتي من النافذة الكبيرة المفتوحة. منها يرى الجزء الغربي من القاهرة بأضواء عماراتها وسياراتها وشوارعها. آه يا قاهرة المعزّ... كلّ زياراتي لك كانت برداً وسلاماً.. كنت أعانقك بجوارحي... وأهديك دقّات القلب... والآن حزين أنا... مقهور... الفصل الذي أعيشه هذه الليلة ليس فصلاً من فصول عشقك... إنه فصل من فصول ألمي..!!

"تفضل.. ألم يعجبك العشاء...!!"

قال له ابنه. لهجةٌ وقحة. لم يشأ أن يعلّق بشيء. ودّ لو يقول له:

"ابن من أنت؟!! أشقاؤك: محامٍ ومهندسٌ وطبيبٌ... أنت وحدك فشلت في دراستك... بالكاد حصلت على الثانوية... لا بأس.. ولكن أن تبصق في الصّحن الذي تأكل منه.. هذا ليس من عمل أسرة السّالم... لقد سوّدت وجهي يا راسم...!!

يقلّب المحطات أمامه... يبحث عن برنامج ما... ما هذا؟! هذا هو... نعم... هو راسم بلحمه ودمه...!! أي والله... صرت تطلع على الفضائيات يا راسم...!!

"راسم مبارك السالم.. ابن الأديب الكبير مبارك السالم.. هل تفيدنا لماذا تأخّر والدك في إعلان انشقاقه وانضمامه للمعارضة...!! (اللّه يشق رؤوسكم... انشقاق..!!)

يجيب راسم:" لا أعرف. أبي له تفكيره الخاص.. هو معارض في كل رواياته..!! يقاطعه المذيع:

"الكاتب الكبير مبارك السالم معارض كما تقول... وأنت ابنه وتعلم عنه ما لا نعلم...

"نعم.. نعم...!! لا بد أن يعلن انضمامه لنا...!!"

يغلق التلفاز.

"ابن الـ...!!"

يأتي صوت زوجته:

"مبارك.. الغداء جاهز... هل أجلبه للحديقة:

"نعم.. نعم.. هاته..!!"

يتناولان الغداء بصمت.

"مبارك.. مبارك..!!" قالت دون أن تجرؤ على النظر في عينيه:

"هتف لي راسم.. يقول إنه صار في اسطنبول..."

"من هو..؟!"

"راسم...!!"

لم يكترث قال بنبرة واضحة:

"يا بهية ما أجمل رائحة الياسمين... أجمل شجرةٍ في الحديقة... ما رأيك أن نذهب يوم الجمعة للزبداني؟!!

لم ينتظر جوابها وأكمل الطعام بشهيّةٍ افتقدها منذ شهور...!!

القلعة جارتنا...!!

لم تكنْ تصدق أنها عائدةٌ مع زوجها وابنتها، إلى بيتهم بعد سبع سنوات من مغادرته. تمنّت لو تُسرع الحافلة أكثر. الشوق يسبقها. تطفر دمعتان كبيرتان من عينيها، تبللان خديها الورديين. تمسح خديها بمنديل ورقي. الحقول الخضراء الواسعة بمحاذاة الطريق تسرّ القلب وتمنح النفس شعورا لذيذا بالأمان. ثمة هواء منعش يأتي من النافذة ينعش الروح.

ثلاثون سنة أمضتها في ذلك البيت، منذ تزوجت ابن الجيران.

عندما لاحت حمص من بعيد شعرت أن عمراً جديداً يُكتب لها.

حمص... يا حمص، يا مدينتي الغالية.. أيّة وحوش باعدت بيني وبينك.. تسللت في غفلة من الزمن تحمل البارود والسواطير، تريد أن تذبح الورد في الحدائق وتقطع الشجر.. وتهدم الحجر..

حمص، يا توءم روحي، كيف ذهبت سبع سنوات من عمري وأنا بعيدة عنك!! هل عبثوا بشعرك، هل سرقوا جدائلك..!!. لكنّهم انكفؤوا مهزومين أمام عنفوان حجارتك وأمواج عاصيك.. هل أعتذر منك يا سيدتي أم أنت تعتذرين؟!.

ها قد جئت إليك ، أنا ابنتك ، اشتقت لحضنك علّني أنسى صقيع الغربة. اليوم أدركت ما الذي عناه الشاعر وهو ينشد :

/ عُدْ بي إلى حمص ولو حشو الكفن

واهتف أتيت بعاثرٍ مردود /.

عندما تركوا المنزل، ذلك اليوم، شعرت أن قلبها يكاد يتوقف.. تكاد تختنق..

" إلى أين؟! " سألت زوجها.

" إلى لبنان..."

" ولماذا إلى لبنان؟! "

" لا تسألي... لا وقت للأسئلة...!!"

وقال بغضبٍ ممزوجٍ بالرعب:

" صاروا على السطح... إمّا أن نحمل السلاح ونقتل ونحرق ونسرق وإمّا...!!" لم يكمل الكلام، فالبقية معروفة.

ثمّة مسلحون ملتحون أقرب إلى الأشباح منهم إلى البشر، يسيطرون على الحارة.. يطلقون القذائف.. والرصاص... ليَمُتْ من يموت.. وعندما لا يجدون هدفاً واضحاً لهم... يصوّبون رصاصهم باتجاه سرب الحمام المتجمّع على مئذنة الجامع. يطير بعض الحمام.. يسقط بعضه.. يتناثر الريش في الهواء، وابتهاجاً بهذا " الانتصار الكبير " يطلقون وابلاً من الرصاص في الهواء..!!.

- " أمي.. يا أمي.. حدّق بي واحدٌ منهم.. كانت نظراته وقحة.. وكان يهمس بأذن رجل آخر كان معه... ويقهقهان.. إني خائفة يا أمي ربما يخطفوني كما فعلوا مع خديجة...!!".

- " لا تقولي ذلك..!! " ردّت أم فاتن برعب.

الليلة الماضية لم ينم أحد في الحارة. خرج بعض الناس إلى الشرفات يكبّرون.. ويدقون على الطناجر والأطباق المنزلية..!!

- " أنت وأسرتك لم تلتزموا بالأوامر.. لم تفعلوا ما أمرناكم به.. أنتم كفرة..!!".

يردّ أبو فاتن بهدوء على الصبي الملتحي:

" باللّه عليك.. قل لماذا نفعل ذلك؟!!"

" تأييداً للمجاهدين في حربهم ضد الحكومة الكافرة..!!"

رماه أبو فاتن بنظرة ثاقبة وقال:

" لا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم..!!".

غادر الصبي الملتحي وهو يقول:

"سنجعلك تندم..!!".

قبيل الفجر.. تسلل أبو فاتن وزوجته وابنته إلى خارج الحارة..

في المخيم، بالقرب من طرابلس، كانت الحياة مريرةً، من جحيم إلى جحيم.. يا ربي ما الذي حصل... تقول أم فاتن.. عين حاسد أصابتنا.. أين كنّا وأين صرنا؟!!.

كان على أبي فاتن أن يملأ كلّ يوم اثنين عدّة استمارات قبل أن يتسلم حصته من السلة الغذائية.

" شحادون نحن.. شحا دون.. " يردّد الرجال والنساء وهم يتزاحمون حول الشاحنة التي تأتيهم بالمساعدات الغذائية.

" الموت أهون من لقمة الذلّ.. ليتنا لم نأت إلى هنا.. " يقول أبو فاتن وهو يبوح بما في صدره أمام زوجته وابنته.

" يرمون لنا الخبز.. وكأنهم يرمونه لكلابٍ.. كلماتهم مهينةٌ.. ما هكذا يكون الشقيق..!!"

" أم فاتن.. أم فاتن.. هل نمت؟! يقولون إنّ حمص صارت آمنة.. ويمكننا أن نعود إلى بيتنا.. المسلحون خرجوا مهزومين..!!".

تنتفض أم فاتن من فراشها:

"باللّه عليك.. هل هذا صحيح؟!!"

" أي واللّه.. يقولون ذلك.. ذلك مؤكد..!!".

" آه يا أبا فاتن.." تقول والدموع تنسكب من عينيها

" أخشى أن أموت بعيداً عن حمص... آه يا حمص... الدبلان.. العاصي.. الحميدية.. القلعة جارتنا..!! "

وجد أبو فاتن أن عليه أن يقول شيئاً ما فهو أيضاً يعشق تراب حمص.. أزقة الورشة وباب التركمان وحيّي بني السباعي والأربعين... وسهرات الروضة الجميلة.

قال، وكأنه يحدث نفسه:

" كنت لا أجد الوقت لأتناول الطعام من كثرة الزبائن.. من الصباح إلى المساء ،في دكاني الصغير.. كان الخير وافراً.. كنا نعيش بأمان.. فما الذي حصل؟!!".

أم فاتن.. يا أم فاتن.. هل نمت؟!

" لا لم أنم.. أسمعك!!"

"هل تذكرين اسم الأسرة اللبنانية التي أقامت عند أهلك منذ كنا صغاراً.. يوم جاء اللبنانيون إلى حمص هربا من الحرب الأهلية؟!!"

" لا أذكر.. كنت صغيرة؟!!"

" أذكر جيداً أن الحارة كانت تطعمهم و تؤويهم مجاناً.. ولكن لم نسألهم عن عنوانهم هنا.. ولا من أية مدينة في لبنان!!"

" أذكر أنّهم كانوا يذهبون يوم الأحد إلى كنيسة دير المخلّص.."

ثمة ريح تهز الخيمة الصغيرة.

" أم فاتن.. يا أم فاتن.. قومي.. ساعديني علينا أن نثبّث أوتاد الخيمة.. تكاد تسقط.. "

***

هذه هي حمص.. هذه هي المصفاة على يمين الطريق يتصاعد الدخان من فوهات مداخنها العالية..

تلوح القلعة من بعيد.. هواء حمص.. ليس مثله هواء.. يقولون.

يدقّ القلب بقوة أكثر.. الناس يملؤون الشوارع وكذلك السيارات.

" هنا آخر موقف.. نحن بجانب القلعة "

ينزلون بسرعة يشكرون السائق..

هذا بيتهم. أتربة وحجارة في المدخل. أبواب مكّسرة..

سيعيدون كلّ شيء كما كان.. ثمّة جيران يرحبون بهم.. ويخبرونهم أن عليهم أن يراجعوا البلدية من أجل معاملة التعويض..

الحمام يهدل بفرح على درجات المئذنة وبرج الكنيسة و سفح القلعة...

" صار لنا بيت.. صار لنا وطن مساء الخير أيتها القلعة!!"

تفيض عينا أم فاتن، ولكنّ هذه الدموع ليست أبداً مثل الدموع التي ذرفتها عندما غادرت البيت قبل سبع سنوات.

العناق الأخير...!!

لم تتسعْ كنيسة القرية الصغيرة، للعدد الهائل من المشيعين، ذلك اليوم.

ثمّة امرأة عجوز في الثمانين من عمرها، تولول، تبكي، تصرخ، تشتم أولئك الذين ارتكبوا المجزرة. كان السواد يجلل كلّ شيء.

لم تشهدْ هذه القرية الجبلية، في تاريخها، حشداً كبيراً، مثل هذا. ناس جاؤوا من مدن وأرياف بعيدة، وأكثرهم رافق جثماني الشهيدين من دمشق.

السيارات تملأ شوارع القرية وأزقتها، وبعضها توقف بعيداً عن الكنيسة، على مشارف القرية.

قالت امرأة من بين المشيعين:

-"ما الذي فعلاه حتى يُقتلا، بهذا الشكل الهمجي... ويل للقاتل من اللّه...!!"

قالت امرأة أخرى:

"لقد فعل جورج الكثير لوطنه... ويقولون إنّه ساهم بتطوير السلاح الذي تخصّص فيه... كان ابنه إبراهيم معه، في السيارة، في أثناء التفجير... الصهاينة قتلوهما..!!" كلّ الدلائل تشير إلى هذا.

هول المصيبة، يجعل المرء يجهش بالبكاء، دون أن يربطه بالشهيدين أي رابط، سوى رابط الانتماء إلى سورية.

وجدت دموعي تتساقط، فسحبت من جيبي منديلاً ورقياً ورحت أجففها. شعرت بالحزن الممزوج بالغضب يدفعني لأن أفكّر بالانتقام...ولكن كيف..؟!!

النار تشتعل داخلي، مثل تنور يفور. الأعين حمراء... وبصعوبة كنت أخرج من الكنيسة، مع المشيعين، من شدّة الازدحام، يتقدمنا جثمانا الشهيدين وشيوخ المساجد ورؤساء الكنائس والكهنة.

سمعت رجل دين عجوزاً يدعو الله بصوت مرتجف أن ينتقم من قتلة الفقيدين المظلومين.

ذلك الصباح، أفاق جورج، كالعادة، مبكّراً تناول قهوة الصباح، بينما كان ولده إبراهيم يحضر حقيبته، كي يرافق أباه في جزء من الطريق إلى الجامعة، بينما يتابع الأب طريقه إلى عمله.

ذلك الصباح، شعر جورج بشيء لم يشعر به من قبل. حدّق بولده وتمنّى لو يضمّه إلى صدره ويمطره بالقبل وشعر أكثر من أي وقت مضى أنّ هذا الابن هو كل ثروته في هذه الحياة.. فهو وحيده.

رشف الرشفة الأخيرة من فنجانه ومضى إلى غرفة نومه، فارتدى بزته العسكرية، بهدوء ثم خرج ليجد ابنه واقفاً بانتظاره ليتبعه إلى خارج المنزل إلى السيارة المتوقفة في الشارع.

كان الأب يتعمّد أحياناً، أن يتمهّل ليفسح المجال لابنه أن يتقدمه، غير أنّ الابن كان يحرص أن يسير خلف أبيه وإذا ما شعر أن أباه قد أبطأ كثيراً في مشيته فإنّه يخاطبه بابتسامة تشي بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام.

-" تفضل سيدي العميد..!!"

يضحك الأب. يصعدان إلى السيارة. يقود الأب بينما الابن يجلس بجانبه.

ذلك الصباح قالت له زوجته:

" جورج.. الغداء اليوم سمك..!! "

هزّ رأسه مبتسماً. وكان قد أحضر في اليوم السابق، كمية من سمك المشط اللذيذ، الذي يحبه كثيراً.

كان يختلس النظر إلى ابنه، وهما يدلفان إلى وسط المدينة، بشوق كبير وكأنّه لم يره منذ مدة من الزمن، ينتبه إلى الطريق أمامه. وبعد قليل يعود ليتفقد ابنه بنظرة حانية.

عند المنعطف المؤدي إلى الجامعة، يخفف من سرعة السيارة.

صوت انفجار...الأرض تهتز.. دخان وغبار لم يعد يرى شيئاً أو يسمع شيئاً. وكانت آخر كلماته:

-"إبراهيم..... إبراهيم "

-أبي.. أبي "

***

بينما كانت تشاهد التلفاز ثمة خبر عاجل ظهر أسفل الشاشة:

" عمل إرهابي يودي بحياة شخصين ويجرح آخرين..!!"

قفزت من مكانها:

" يا رب استرْ..! "

بعد قليل عاد الخبر العاجل بصيغة أخرى في محطة أخرى " اغتيال خبير عسكري وابنه وسط دمشق..!! "

***

حكى أحد رجال الإسعاف، بتأثّرٍ بالغ، وهو يبكي:

" مرات قليلة بكيت فيها.. منها هذه المرة. بصعوبة بالغة استطعنا فصل بقايا الجثتين عن بعضهما.. كان العناق الأخير بينهما..!!"

***

سألتني ابنتي الصغيرة، بعد الحادث بأسابيع:

-"قلت ستكتب قصة الشهيدين... هل كتبتها؟ "

خجلت من سؤالها. ولم أشرح لها إنّني كلما شرعت بكتابة القصّة، وبعد سطرين أو ثلاثة، أمزّق الورقة.. وأشعر أنّني عاجز عن كتابة قصّة ترقى لشيء يسير جداً من جلال الحدث.

وقلت لها:

" قصّتي لن تكون شيئاً يُذكر أمام القصة التي كتبها جورج وابنه إبراهيم.. بدمهما في دفتر الوطن...!!

أبو عبدو الساعاتي

بعد أسبوع من تلك الفاجعة عاد أبو عبدو ليفتح دكانه في الشارع الرئيس من هذا الحيّ القديم في المدينة. الغبار يعلو الساعات المعروضة على جدران الدكان، ويشكّل طبقةً رقيقةً على السطح الزجاجي للطاولة الكبيرة التي اعتاد أن يضع عليها عدة إصلاح الساعات، وساعات اليد التي تحتاج إلى إصلاح. كانت السّاعات قد توقفت في الساعة الواحدة من يوم الأحد الماضي أي قبل أسبوع تماماً.!!

بدأ يمسح بقطعة قماش الطاولة، ثم الساعات، ثم كرسيّه الخشبي المرتفع القديم، الذي اعتاد أن يفخر أنّ عمره جاوز الخمسين عاما، فقد اعتاد المرحوم والده، الذي أورثه هذه المهنة، أن يجلس عليه..!!

-"حافظ عليها.... هذه المهنة تدرّ ذهبا يا بني"

اعتاد والده أن يردّد أمامه. وقد أثبت أنّه لا يقل جدارة عن أبيه.

بعد سنوات قليلة أضحى أبو عبدو، أشهر مصلح للساعات في مدينتنا، فالساعة التي يعجز المصلحون الآخرون عن إصلاحها يأخذونها إلى أبي عبدو.

يتناولها. يزيل غطاءها. ويخرج ما بداخلها ويلقي نظرةً فاحصةً عليها... ثم يقول لصاحبها :

" تعال... غداً الساعة السادسة مساء.!!"

وعندما يأتي الزبون في اليوم التالي قبل الموعد المحدّد، يبادره أبو عبدو بالقول:

" موعدنا السادسة تماماً وليس قبل ذلك...!! "

يخجل الزبون وعندما يهمّ بمغادرة الدكان يناديه أبو عبدو :

" تعال.. اجلسْ هنا "

له ابن وحيد اسمه "عبد السميع" ومعروف في الحارة باسم "عبدو الساعاتي.."

عبد السميع ،طفل مدلل، آخر العنقود، فقد جاء بعد ثلاث بنات. هو الآن في الصف الثاني.

يعمل أبو عبدو دون كللٍ أو ملل، طيلة النهار فهو بائع ومصلح للساعات.

تـدقّ السـاعة الواحـدة، فتنهمـر عينـا أبـي عبـدو بالـدموع السـاخنة.. يتمـتم بكلمـات الشـكر والحمـد للّٰه تعـالى، والرضـا بقضـاء اللّٰه وقـدره والـدعاء أن يـرحم اللّٰه الشـهداء وينصـر الـوطن. ويسحق عصابات المجرمين.

في مثل هذا الوقت قبل سبعة أيام.. كان منهمكاً في عمله بإصلاح ساعة ثمينة من نوع " اوميغا " عندما هزّ الحارة انفجار ضخم جداً اهتزت معه كل الساعات في المحل.

" يا رب.. يا ساتر..!!" صاح أبو عبدو بشكلّ عفويّ.

انتشر الخبر بسرعة البرق:

" إرهـابيّ يفجـر نفسـه بـين تلاميـذ مدرسـة "عكرمـة المخزومـي الابتدائية"، عند خروجهم نهاية الدوام المدرسي..."

سـيارات الإسـعاف والنجـدة وسـيارات أخـرى تطلـق أبواقهـا مسرعة تنقل الشهداء والجرحى الصغار إلى المستشفى القريب.

أمام باب المدرسة مشهد فظيع: أحذية مبعثرة كتب ودفاتر وحقائب وأجزاء من اللحم الآدمي الطري على الأرض، وعلى جدار المدرسـة، بـرك صـغيرة وخطـوط مـن الـدم المسـفوح علـى إسـفلت الشارع، رجال ونساء وشيوخ وفتيان يصرخون.. يولولون.. تختلط الأصوات والأسماء:

"باسم.. فاطمة.. طوني.. خالد" كل ينادي ابنه أو ابنته..!!

انتشر خبر يقول:

"إن عـدد الأطفـال الشـهداء والجرحـى مـن الأطفـال زاد عـن الأربعين...!!

أبو عبدو يصرخ:

"عبدو.. عبدو.."

ثـــم يصـــمت لحظـــةً ويعـــود للصـــراخ "عبـــد الســـميع.. عبد السميع.!!

يهرول. يركض إلى المستشفى القريب لأنه لم يجد ابنه بين الأطفال المرعوبين، الباكين.. دون أن يفهموا ما الذي يحدث... ولماذا؟

يعترضـه الحـارس كمـا يعـترض النـاس الآخـرين.. بصـوت متوسل:

"أرجوكم.. انتظروا قليلاً.. دعوا الأطباء يقومون بعملهم!."

ينتظر مع الناس المنتظرين في الخارج. نصف ساعة تعادل ألف سنة...!!

يخـرج ممّـرض طويـل القامـة يلصـق علـى الجـدار ورقـة عليهـا أسماءٌ مكتوبةٌ بخط اليد، على عجل، تحمل عنواناً هو "أسماء الجرحى".

يبحث... مرة.. مرتين....لا يجد اسم " عبد السميع "

يعود الممرض ليصيح:

"هناك جثث لم نعرف هويتها... رجاءً من يريد الدخول نسمح له، ولكن من الباب الخلفي"

"هرع مع بعض الناس إلى الباب الخلفي، الذي يفضي إلى درج للأسفل يفضي بدوره إلى قبو فسيح. الجثث الصغيرة مصفوفة بعناية فوق طاولات كبيرة.. راح يتفحص واحدة منها ثم انتقل إلى الثانية وعندما وصل إلى الجثة الثالثة شعر بأنّ شيئاً ما يجذبه إليها.

يتمتم بكلمات غير مفهومة وكأنه فقد عقله !! شعر أن قلبه يكاد يتوقف.. الوجه مغطى بالدم المتخثر وكذلك الرأس.. أمسك اليد اليسرى وسحبها برفق من تحت الجسد المسجى، هذه هي الساعة التي أهداها له بداية العام الدراسي....!!

" لا...لا عبدو.. عبدو.. !! ردّ علي.... !!"

***

صباح اليوم التالي، كانت المدينة تبكي، وهي تشيع، ستة وعشرين طفلا وطفلة، في موكب واحد، جاب أرجاء المدينة.

***

امـرأة في بـاب المحـل فاجأتْـه.. قطعَـتْ شـروده.. راح يمسـح بمنديل ورقي عينيه ووجهه.

خاطبها قائلاً:

"ما الأمر.. هل راجعت الطبيب؟"

ردت المرأة باكية:

"نعـــم.. نعـــم.. ســـيعود لنـــا عبـــدو.. يـــا أبـــا عبـــدو... ما أكرمك يا رب.. !!"

وأنخرط الاثنان في البكاء.

زغاريد رمزية

سمعت زغاريدها عندما كنت طفلاً صغيراً في الصف الأول الابتدائي قبل خمسين سنة ونيّف .. وسمعت زغاريدها، قبل أيام. النبرة القوية.. الزغرودة الطويلة، كأن "رمزية " لا تزال صبيةً، بل " أميرة الصبايا " كما كانوا يلقبونها، قبل أن يأتي رجال ثلاثة ويأخذونها عروساً لأحدهم، في قرية مجاورة لقريتنا.

زغاريد رمزية، كانت ذائعة الصيت، فالمناسبات، كالأعراس، والاحتفالات بنجاح أحد الطلبة في الشهادة الابتدائية أو الإعدادية، على قلّة من ينالها تلك الأيام، لا تتم بغير زغاريدها التي يتردد صداها في أرجاء القرية التي كانت صغيرة تلك الأيام.

صبية سمراء، طويلة القامة كالرمح الرديني، كما اعتادت أمي أن تقول. عينان سوداوان واسعتان كعيني المها لشدة بياضهما وسوادهما، كما اعتاد المعلم أن يشرح لنا معنى (عيون المها بين الرصافة والجسر).

ذات شباط بعيد، كان زفاف رمزية إلى شاب في قرية مجاورة ... كنا نحن الأطفال نسأل أمهاتنا:

(هل ستزغرد رمزية في عرسها؟!)

والأمهات اللواتي ملَلْن أسئلتنا كن يُجبْن:

(عيب يا ولد.. العروس لا تزغرد في عرسها؟!).

أما إذا أردف أحدنا سؤاله الأول بسؤال ثانٍ مثل:

(ولماذا لا تزغرد.. أليست مسرورةً لأنها عروس؟!)

وكان الجواب على الأغلب:

(اسكتْ ..!!).

وكنا نسكت. وإذا ما تجرأ أحدنا وسأل أمّه عما سمعه من بعض الأولاد من أنّ العروسين ينامان في فراش واحد، فإنه سينال غضب أمّه، و ربما نال منه سوط أبيه وهو يصرخ:

"جيل ملعون.. ألا تستحي يا قليل التربية!!"

كان يوماً شتائياً ماطراً. ينهمر المطر بغزارة، ثم يتوقف قليلاً فتبزغ أشعة الشمس.. ثم تأتي غيمة فتحجب الشمس وينهمر المطر من جديد.. وقد ينهمر المطر بينما يكون الجو مشمساً، في مشهدٍ جميلٍ أخاذ. لقد أهدت الطبيعة لرمزية يوماً ماطراً.. وهذا ما جعل الناس يقولون (إن كعب رمزية أخضر... كناية عن الخير المرتبط بالمطر في يوم عرسها..!!).

ثلاثة رجال جاؤوا من قريةٍ خلف الجبل، أحدهم يقود فرساً عليها سرج تتدلى منه على الجانبين قطعتان من الحديد لتثبيت رجلي الفارس.

يستقبلهم أبو رمزية ويدعوهم للدخول..

كان بيت رمزية غير بعيدٍ عن بيتنا، وسط القرية، تلك الأيام. تجمعت النساء في منزل رمزية لوداعها، وكل واحدة تحمل بعض النقود هديةً لها. وهذا ما فعلته أمي، فبعدما ارتدتْ ثوبها المخملي الجديد الذي أخرجته من الصندوق الخشبي المزخرف الجميل، الذي أهداه أبي لها يوم زفافهما، وانتعلتْ حذاءها الأسود اللامع..

أمسكتُ بطرف ثوبها، وكنت في الخامسة من عمري، وتوسلت إليها أن تأخذني معها، فأمسكت بيدي وقادتني إلى بيت العروس. دخلت معها غرفة طينية، ملآنة بالنساء، بينما اجتمع بعض الرجال في غرفة المنزول. راحت شقيقة العروس توزع حلوى (الملبس) على الحاضرات، وسط أهازيج وزغاريد ليس بينها زغاريد رمزية، التي كانت تجلس في صدر الغرفة على كرسيّ خشبيّ مرتفع. كانت ترتدي ثياباً جميلة، وقد بدت عيناها السوداوان أكثر اتساعاً بسبب الكحل.

يحين بعد ساعة ونيّف الموعد الفاصل بين عمرين وبيتين.. يدخل والدها الغرفة.. بخطوات متثاقلة، تقف رمزية وتلتقط يده، تُقبّلها وتضعها على رأسها... يحاول أن يخفي دموعه.. ويقول بصوت مخنوق:

(هيا يا ابنتي.. وفقك الله..!!)

الرجال لا يبكون.. هكذا كنا نسمع ونحن صغار، لكنني رأيت الدمع يملأ عيني أبي رمزية... ولم نجد، نحن الصغار، تعليلاً للأمر.. لماذا لا يبكي الرجال؟!!. غير أنّنا عندما كبرنا اكتشفنا أن هذه المقولة غير صحيحة.

فالرجال عندما يبكون.. يغلق واحدهم الباب على نفسه ويذرف الدمع غزيراً.. وعندما يفرغ من البكاء.. يمسح عينيه ويخرج وهو يتصنع الابتسامة..!!.

كنا ـ نحن الأطفال ـ نهمس ما الذي يجري حولنا..؟ لماذا يأخذون رمزية إلى بيت رجلٍ غريبٍ في قرية أخرى؟!

عَلَتْ زغاريد النسوة عندما كانت رمزية تخرج محاطةً بهن. أمسك بها رجل وساعدها في امتطاء الفرس. وبعد قليل كنا نرى في السفح المقابل للقرية فارسةً يحيط بها ثلاثة رجال يتسلقون الطريق المتعرج إلى القرية الأخرى خلف الجبل.

"ماما.. ماما.. لماذا أخذوا رمزية؟!"

سألتها ببراءة الأطفال.

"لكي تعيش هناك في منزل ذلك الشاب وتساعده في العمل في الحقل" أجابت.

-"ولماذا لا تبقى عند أهلها وتساعدهم...؟!" جاء سؤالي.

"اسكتْ .. كل الصبايا يذهَبْن من بيوت أهلهن عندما يكبرن"

أجابت بحدة.

وددت لو أستطيع أن أسألها أكثر لأعرف ما الذي يجري لكنني كتمت أسئلتي.

عرس رمزية حضر في ذاكرتي بتفاصيله قبل أيام وأنا أدنو من رمزية وأقبّل رأسها. امرأة عجوز بدينة، جذبتني وقالت وهي تمطرني بالقبل وعيناها مغرورقتان بالدمع:

"أنت كنت معلمه.. قل لي ألم يكن الأول في صفه؟"

" نعم كان الأول يا خالة وهو ـ رحمه الله ـ لا يزال في المرتبة الأولى عند الله يا خالتي أم محمود الله يرحم الشهيد محمود.."

وعندما استدرت لأخرج من الغرفة الملآنة بالنساء شدّتني بطرف قميصي فالتفت نحوها، ولم أجرؤ على النظر في عينيها وقالت:

"لدي شابان آخران.. والله هما فداء هذا الوطن أيضاً أريد أن يعرف الناس هذا.."

هززت رأسي وقلت:

"أنت أخت الرجال يا خالة رمزية. أطال الله عمرك الله يحمي أولادك..."

وأطلقت رمزية عدة زغاريد وهي تلوّح مودّعةً ابنها البكر الذي كنا نحمله على الأكف ملفوفاً بعلم الوطن إلى المقبرة، وثمة صوت لامرأة هي رمزية يصيح:

" الله معك يا بطل "

أبو رازي ....!!

أخيراً...، رحل " أبو رازي" إلى جوار ربه. رحل بعد أن دفن، قبل أشهر ابنه الوحيد رازي الذي قضى شهيداً في معركة الشرف ضد العصابات الإرهابية في ريف حماه الشّمالي.

تسعون سنة ونيّف، أمضاها الرجل في هذه الحياة الفانية، فلاحاً مجّداً، وصاحب منزول عامر، في البلدة، يؤمه الرجال، كل يوم لقضاء السهرة، يحتسون القهوة العربية والشاي، يدخنون ويروون حكايات الماضي والحاضر. وكانوا، بين حين وآخر، يطلبون من أبي رازي أن يروي قصته "قصة أبي رازي".. وهي قصة معروفة في هذه المنطقة من الريف.

وقبل أن يبدأ أبو رازي سرد أحداث القصة، وكالعادة، يعلن عتبه على الحكومة لأنّها أنتجت فيلماً عن حياة صديقه "أبو علي شاهين " الفهد" بينما لم يكترث أحد بقصته. ويعلّل الأمر أنّ الآغا الذي قتله أبو رازي من عائلة لا يزال لها حضورها في المجتمع، حتى يومنا هذا ...!!

يتنحنح أبو رازي.. ويبدأ الحكاية:

"كان يا ما كان.. في تلك القرية من قرى "الآغا صائب "قصر كبير يقيم فيه الآغا، عندما يأتي القرية من المدينة ليشرف على استلام مواسم الحنطة والشعير...، بمساعدة رجاله: الحارس والوكيل وعدد من الرجال... في ذلك اليوم الذي حصلت فيه الحادثة.. جاء الحارس إلى بيتنا، فوجدني واقفاً أمام الباب، كنت فتىً في الخامسة عشرة من عمري... رمقني بنظرة استعلاء وقال:

"اسمعْ يا حمدان... أرسلْ شقيقتك مروة إلى القصر.... اليوم دوركم في الخدمة..."

لم أجب بشيء. هززت رأسي إشعاراً بأنني أخذت علماً بالأمر. ومع أنّ "مروة "سبق لها وخدمت في القصر، مثل كل نساء القرية، غير أنني شعرت بالإهانة... وقررت عدم إرسال مروة. و ذهبت أنا للخدمة بدلاً منها.

عندما دخلت باحة القصر، شاهدني الآغا الذي كان واقفاً في شرفة الطابق العلوي.. فصاح بي:

-"هيه.. أنت ماذا تريد؟!"

-"جئت للخدمة بدلاً من شقيقتي لأنها مريضة.. يا سيدي!!"

أجاب:

-"أوليس عندكم فتاة غيرها؟!!"

-"لا.. والله ..!!"

هزّ رأسه وهو يقهقه بضحكة ماكرة:

-"لا بأس.. قد تنفع أنت أكثر من شقيقتك..!"

هذه العبارة ــ يا إخوتي ــ جعلت جسمي ينكمش وشعرت بالخوف...!!

كان الآغا رجلاً طويل القامة، ضخم الجثة، غليظ الشفتين، يرتدي بزة بيضاء وربطة عنق، و ثمة قبعةٌ مستديرة على رأسه.

في المساء حملت بناءً على توجيهات الحارس، طبقاً كبيراً فيه الصحون الملأى بالطعام، من المطبخ إلى الطابق العلوي، ووضعتها على طاولة كبيرة أمام الآغا الجالس بجانبها. ثم عدت إلى المطبخ وأحضرت إبريقاً زجاجياً فيه الماء، مع كأس بلورية، وضعتهما بجانب الطعام.. وعدت نازلاً الدرج بهدوء إلى غرفة المطبخ .

وفكرت في نفسي.. كيف يقبل الفلاحون، بإرسال نسائهم إلى هنا... والآغا، وحده في القصر، لاسيّما وأنّ سُمْعته سيئة جداً إنه من أسوأ الآغاوات في البلاد، وأنّ سلوكه شاذّ كما يقولون.

بدأ الدم يغلي في عروقي. رفعت قبضة يدي، بشكل لا شعوري، متخيّلاً أن الآغا أمامي... سدّدتُ نحوه وضربت.. لكن قبضتي لم تصطدم بشيء سوى الفراغ...!!.

تخيلت أنّ الآغا يعتدي على شقيقتي... وأنّني أحاول أن أخلّصها منه، أغمضت عينيّ... حركت قبضتي بقوة، فاصطدمت بالفراغ أيضاً. حارس الآغا وكان اسمه "صطام" أبدى اندهاشه لتصرفي وسألني:

-"ما بك.. يا ولد؟! "

تجاهلت سؤاله. ثم ما لبث أن طلب مني أن أصعد إلى الشرفة وأعيد بقايا الطعام. ففعلت ذلك على الفور. ثمة نظرات مريبة كان الآغا يرمقني بها...!! لاحظت أنّ الحارس يضع الفاكهة من عنب وتفاح، وثمة زجاجة خمر وكأس.، في صينية كبيرة، حملها الحارس بنفسه إلى الطابق العلوي.

بعد ساعة أو ربما ساعتين، طلب مني الحارس أن أصعد فربّما يريد الآغا شيئاً ما. كانت رائحة الخمر تنبعث منه... ناداني "تعال .. انقل المنضدة وما عليها إلى الداخل" سبقني إلى غرفة نوم باذخة.. فيها سرير عال وثمة كنبات ومرآة كبيرة قبالة السرير...!!

عندما فعلت ما أمرني به... فوجئت به يناديني:

-"تعال.. اجلس.. ما اسمك؟!!

-"أحمد... يا سيدي!!"

هزّ رأسه وأشار إلى الكنبة أن أجلس..!!

جلست. استدار نحو الباب... أغلقه ثم أدار المفتاح.

ولاحظت أنه أخرج المفتاح من قفل الباب. هنا شعرت -يا إخوان ـ أنّ الدم يغلي في عروقي، من جديد. شعرت بالرعب، وأنّ شعر رأسي يقف، كما يقولون. وللحظات، لم أعد أرى شيئاً.. ثم رأيته يربت على كتفي.. وأمسك بيدي وشدني نحو السرير...!! وهو يقول كلاماً غريباً.

-"أنت أفضل من أية امرأة..!!"

أفلتّ منه واندفعت باتجاه الباب. قهقه ضاحكاً. أردت أن أصرخ... لكنّني لم أجد صوتي...!!

استمر يقهقه.. ويتبعني في أرجاء الغرفة...!!

لمحت سكيناً قرب الفاكهة في الصينية..!! تناولتها، وبسرعة وقوة أغمدتها في عنقه.. نفر الدم... أطلق صرخةً.... محاولاً أن يمسكني... تناولت منضدةً صغيرةً جعلتها بيني وبينه.. وراح يترنح.. الدم ينفر.. يحاول أن يسد الجرح بيده... وقع على الأرض.. ضربت النافذة بالمنضدة الصغيرة.. أحدثت فتحةً... خرجت... نزلت الدرج بسرعة.

"مـاذا حصـل..؟! "سـألني الحـارس مندهشـاً.. وأنـا أهـرع والسكين بيدي إلى الخارج... لم أجب بشيء.

أصاب الذعر أمي وشقيقتي عندما ظهرت أمامهما، فجأة، وثمة بقع من الدم على قميصي، وأنا ألهث...!!

"ماذا حصل.. ما هذا الدم؟!!"

عندما أخبرتهما بالأمر.. خرجنا نحن الثلاثة تحت جنح الظلام، نهيم على وجوهنا. مررنا بعدة قرى. كنا نقيم يوماً أو بعض يوم في كل قرية، ثم نمضي نحو الشرق في عمق البادية. انتحلت اسماً جديداً. وعندما وصلنا إلى قريتكم هذه... وجدنا فيها ناساً طيبين... وصرنا من أهلها.

انتشر خبر مقتل صائب بك في البلاد، على يد فلاح عنده. قال الناس كلاماً كثيراً، واختلقوا حكايات من الحكاية. ومضت سنوات عديدة. زال عهد الإقطاع... ورحت أسرد ما جرى.. وأعلنت اسمي الحقيقي.. لكنني لا أزال أحنّ إلى تلك القرية التي أبصرت فيها النور...!!"

مات أبو رازي.

غير أنّ ما بعث الحكاية من جديد، بعد موته بأشهر، وصول فريق تلفزيوني، لدراسة وتصوير الأماكن التي عاش فيها. وكيف ثار ضد الإقطاع وكان أول مشهد تم تصويره، في مقبرة

البلدة، حيث هناك قبران متجاوران أحدهما مكتوب عليه "أحمد الحميدان" والثاني يحمل شاهدة كتب عليها "الشهيد البطل رازي أحمد الحميدان.....!!". أما المشهد الثاني فكان لمدرسة الشهيد رازي أحمد الحميدان، وبعد ذلك للقرية التي وقعت فيها حادثة مقتل الآغا وصار اسمها "أبو رازي "...!!

موعد على الغداء

أمسكتْ جهاز الهاتف المحمول بعد انتهاء المكالمة، بكلتي يـــديها ووضـــعته علـــى صـــدرها مـــن جهـــة اليســـار، وهي تقول:

" الحمد للّه.. الحمد للّه "

يرقص قلبها.. ما أقلّ اللحظات التي تشعر فيها، هذه الأيام، بالفرح وانشراح صدرها...

آه يا خالد كم اشتقت إليك أيها الأغلى والأبهى.. يا سندي في هذه الدنيا..!!

قلّما يتحدث إليها. وحدها تعيش في هذه الغرفة الصغيرة، التي استأجرتْها من قريبٍ لها، في حي "العمارة"، بعدما خرجت بملابسها من بيتها الواسع.

يا لذاك البيت ما أروعه!! . دارٌ عربيةٌ فسيحةٌ.. فيها أشجارٌ وعريشة عنبٍ دوماني كبيرة تغطي جزءاً من أرض الدار، و ثمة شجيرات ورود يمتزج أريجها فينعش القلب والروح. لم يبق لها سوى

خالد شقيقها بعدما مات أبواها.. هو الدنيا كلها عند سعاد وهي كذلك بالنسبة إليه.

لا تزال كلماته في أذنيها برداً وسلاماً.

"أعتذر منك يا سعاد قلما أتمكّن من التحدث إليك.. المعركة حامية الوطيس كل يوم نحقّق انتصاراً، الأمان عائد إلى الغوطة حتماً. استعدي للعودة إلى دوما... إلى بيتنا!!"

.. دوما..

أيتها المدينة المتوجة أميرةً من أميرات الغوطة.. أية ذئابٍ فتكت بالعنب الدوماني اللذيذ..!! أي بشرٍ هؤلاء الذين أحرقوا البيوت وفجّروا أنفسهم وسط تلامذة المدارس.. قتلوا من قتلوا.. وهجّروا من هجّروا.

لا يمر يوم إلا وتستعيد تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم. خرجت تهيم على وجهها مع كثير من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال. استأجرتْ هذه الغرفة بعيداً عن الغوطة. لكن القذائف تصل أحياناً إلى هنا، فقبل أيام سقطت قذيفةٌ غادرةٌ على منزلٍ قريب فقتلت وجرحت من فيه ..!

قالت لها العرّافة قبل سنوات:

"سيأتي وقت تُكسف فيه الشمس و يُصيب القمر الخسوف.. تجفّ الينابيع والأنهار والآبار.. و ما تبقى من ماءٍ يصير بلون الدم.

تظهر أشباحٌ تشبه البشر، ولكنّها ليست بشراً تطلق النار على عناقيد العنب وعصافير البساتين وعلى حبات المشمش.. وعلى رؤوس الناس وصدورهم. تسبي النساء حتى يصير لكل واحدٍ من هؤلاء عدة نساء يبدلهن باستمرار.."

تشعر بالرعب.. تصرخ بوجه العرّافة.. تطردها وهي تقول:

"خذي ما تشائين واذهبي....!!"

غابت العرافة سنوات ثم ظهرت فجأة، التقت بها، قبل أيام وجهاً لوجه:

-"أنت.. الـ.. ؟!!"

-"نعم.. وأنت البنت الدومانية..؟!!"

" ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

" ما جاء بك أنت إلى هنا جاء بي..!"

دعَتْها إلى غرفتها. تناولتا القهوة بسرعة. قلبت العرافة الفنجان تأملت ما بداخله.. وقالت:

"سوف تعود الشمس كما كانت، وكذلك القمر سوف يعود للسهر مع العاشقين ويراقص النجوم. وسوف يحصحص الحق، بعدما يخرج يوسف من البئر، ويبشر الناس بالخير العميم ويفضح مؤامرة أشقائه.. وسوف تعود الغوطة ترتدي أثوابها في الفصول الجميلة.. يبتهج الناس وتكثر الأفراح والليالي الملاح..."

تضحك العرافة بخبث وتقول:

"ولك يا سعاد نصيبٌ من الفرح والسرور.. انظري في الفنجان هذه صورته: شابٌ طويلٌ يشبه أخاك.. وقد يكون رفيقه.. عيناه عسليتان.. شعره أسود كثيف.. يفكر بك كثيراً. لكنّه لا يستطيع رؤيتك.. لقد أحبّك من النظرة الأولى.. اسمه ربّما يبدأ بحرف الواو.. هاتي..!!"

تمدّ العرّافة يدها فتنقدها سعاد عدة قطع من فئة الخمس والعشرين ليرة ..!!"

تغادر العرّافة البيت. قلب سعاد يدقّ بقوّة. يكاد يخرج من صدرها.. أيّ فرحٍ هذا؟!!

هل ما تقوله العرّافة صحيح؟!! يبدو ذلك.

كان ينظر إليها بحياءٍ وإعجاب. رفيق خالد في الجندية.. اسمه "وائل". وقد أسرّ لها خالد أنّ وائل سأله عنها.. وأبدى رغبته في التعرّف عليها أكثر.. ولمّح أنّه سوف يطلب يدها بعد انتهاء هذه الحرب المجنونة.. وبعد أن ينظفوا سورية من رجس الإرهاب..!!

"سوف أحضر.. غداً.. في إجازة قصيرة جداً .."

هذا يعني أنه سيحضر لعدة ساعات ليس أكثر.

"حضّري الغداء قد يأتي معي أحد من رفاقي..!!"

وهذا معناه أن تعدّ "الكبسة" هذه الأكلة المفضلة لديه..

" كل يوم نحقّق انتصاراً جديداً .."

هذا أهمّ ما قاله.. الحمد للّه.. سوف نعود إلى بيتنا..!!

آه يا دوما.. آه يا بيتنا.. يا عريشة العنب.. من يجلس تحتك.. من يقطف عناقيدك المتدلية بجمالٍ باذخ، ومن يتذوقها؟!!"

الموعد يقترب.. يدقّ قلب سعاد.. تسمع خطوات خارج الغرفة.. ثمة دقات على الباب.

" يا آنسة سعاد. أنا وائل.. رفيق خالد..!!"

تفتح الباب تمسح عينيها.. تقول بصعوبة:

"ا أهلا ... نعم.. أين خالد؟!!"

"خالد.. سيصل بعد قليل".. قال وائل ..

وبعد ثوان من الصمت قال بكلمات قوية، ممزوجةٍ بالكبرياء والرجولة:

"الشهيد البطل خالد سيصل في الموعد المحدّد.. على الغداء..!!"

طوني وماريا

عندما سمعت "أمّ جوني" أنّ قراراً صدر بتسريح دفعةً من العسكريين الاحتياط، من بينهم ولدها الأصغر "طوني"، لم تستطع أن تخفي بهجتها. فبعد تسع سنوات أمضاها في صفوف الجيش، خاض فيها معارك كثيرة ضد الإرهابيين، في درعا وحمص، وأخيراً في ريف إدلب، سيعود إليها...!!.

راحت العجوز تتخيل ابنها في حفل زفافه، الذي تأجّل طويلاً، حتى الانتهاء من خدمته العسكرية. فقد أعلن خطوبته على "ماريّا"، المعلمة في مدرسة القرية، منذ أربع سنوات.

سيعود إلى عمله مهندساً للديكور، مشهوداً له بمهارته وإنجازاته الفنّية، من خلال المشاريع التي عمل بها.

وعلى الرغم من أنّ شقيقه الأكبر "جوني" المغترب في استراليا، يحاول بين الحين والآخر، إقناعه، عبر الهاتف والرسائل النصيّة، باللحاق به، حيث الأجور مغرية جداً، كما يقول. غير أنّ طوني أعلن أنّه لن يكون له بيت، أو قبر، خارج هذه القرية المتربّعة على سفوح جبال حمص الغربية.

ثمة امرأتان في حياته، أمّه وماريّا. آه... يا ماريّا بالأمس كنا نلعب في الشارع... أنت اليوم أميرة الصبايا...!

يرنّ جرس الهاتف المحمول. تفتح العجوز الجهاز... تظهر صورة "جوني" على الشاشة... تخاطبه بفرح:

-"أبشّرك يا بني... لقد انتهت خدمة شقيقك... غداً أو بعد غدٍ يأتي...!!. بعد شهرٍ سيكون زفافه... اسمعْ لا تقل لي إنّك لا تستطيع الحضور أنت وأسرتك... منذ سنين لم نركم...!!. ماذا تقول.؟! سوف تحاول... حسناً الله يرضى عليك يا بني... اشتقنا لكم كثيراً يا بني...!".

تنتهي المكالمة.

تعود إلى تخيلاتها.

يقولون البارحة صدر قرار بتسريح طوني... ربّما يصل غداً. يقولون عنه "البطل" لأنّه خاض معارك عديدة ضدّ هؤلاء الأشرار... وقد جُرح في إحدى المعارك... وها هو الوسام الذي ناله معلّق على جدار الغرفة الكبيرة.

وفكرت: هل تتصل بـ"ماريّا" أم تتصل بـ"طوني"..؟!

تمسك الجهاز، تطلب طوني، ماذا... الخط مقفل أو خارج نطاق التغطية...!! يحصل هذا كثيراً... تضع الجهاز جانباً ثم لا تلبث أن تلتقطه وتطلب "ماريا"...!!.

-"ابنتي الحلوة... كيف حالك يا غالية... لك عندي خبرٌ مفرح... انتهت خدمة طوني... غداً ربّما يأتي... أو بعد غدٍ...!!". الزفاف الشهر القادم... وعدني جوني أن يبذل جهده كي يحضر... هلا... مع السلامة يا بنتي...!!".

تبكي... تضحك، تبرق عيناها بفرح... تكلّم نفسها:

-"شكراً لله... الحمد لك يا ربّ... أخيراً سوف يتزوج طوني ويملأ البيت بالأولاد... كم أنت كريم يا ربّ...!!"

تعود إلى الجهاز وتطلب "طوني" ومرةً أخرى... الرقم المطلوب مقفل أو خارج نطاق التغطية...!!".

تشعر بالقلق. خوف مجهول يتسلل إلى أعماقها. أتراه مشغولاً بتسليم سلاحه وأمتعته العسكرية.؟

تكرر المحاولة... والنتيجة... كما هي...!!

"اللهم احمِ طوني ورفاقه... وجيشنا السوري... يا ربّ انصرهم على هذه العصابات...!!".

يرن جرس الهاتف... تتناوله... لعلّه طوني... تعود لقلبها دقاته المتسارعة... لكنّ رقماً غريباً يظهر على الشاشة.

-"نعم... نعم... أنا والدة طوني...!!"

يأتي الصوت:

-"سنقول لك يا خالة إنّ خدمته انتهت... لكنه لم يتركنا، نحن رفاقه، ونحن نخوض المعركة.. قال إنها المعركة الأخيرة قبل أن يغادرنا..!! لقد كان بطلاً... مات من أجل أن تبقى سورية.. لقد أبلى بلاءً حسناً.. قتل الكثير من الإرهابيين..!!".

-"كنت أتوقع هذا قبل هذا اليوم... اليوم فقط لم أتوقع هذا الخبر...!!".

يتلاشى الصوت...!! يرتمي الجهاز من يدها...!!

ينتشر الخبر في القرية، يدقّ جرس الكنيسة... لكنّ دقاته المتسارعة تشير إلى الفرح...!!.

الرقيب عبد المعطي

في ساعةٍ مبكّرة من صباح اليوم التالي لوصوله إلى منزله في إجازة لمدة يومين، بعد غياب سنة ونيّف، سمع عبد المعطي طرقاً على الباب. قفز من السرير، واتّجه صوب الباب الرئيس...!!.

هذا ما كان يخشى منه. ثمة رجال ملثمون... اقتادوه، بعد أن وضعوا عصابةً على عينيه، وكمامةً لاصقة على فمه. توقفت السيارة بعد نصف ساعة... أنزلوه، ودفعوا به داخل غرفةٍ أرضية في بناءٍ قيد الإنشاء.

لم يكن ثمّة شيء، في تلك القرية الوادعة، المتعربشة على سفوح جبال القلمون الغربية، يوحي بأنّها غير آمنة.

عندما وصل عبد المعطي إلى منزله، فوجئت به زوجته وأبناؤه الأطفال الثلاثة. كانوا فرحين جداً... راحوا يعانقونه وهم يرددون "بابا... بابا...!!". أما الزوجة فقد تقدمت نحوه، ودموع الفرح في عينيها، والتقطت يده وقبّلتها وهي تقول: "الحمد لله على السلامة...!!".

-"كيفك يا أمينة...؟!"

سألها بشوقٍ وحنان.

تعاون الأطفال وسحبوا الحقيبة الكبيرة، التي وضعها والدهم خارج الباب سارعوا إلى فتحها. ولم يخب ظنهم، فقد كانت علبة الحلوى الكبيرة في أعلاها. وقبل أن تهرع الأم لتوزيع قطع الحلوى من الهريسة "النبكية" الشهيرة، عليهم، كان كل واحد منهم قد تناول قطعةً وراح يلتهمها...!!.

بعدما تناولت الأسرة العشاء، تحت شجرة المشمش الكبيرة في الدار، بدأ الأطفال يستسلمون للنوم، فحملهم الأب إلى غرفة نومهم، واحداً بعد الآخر...

كان اللقاء حاراً جداً بين الزوجين. وقد آثر عبد المعطي ألاّ يفسده بأية أسئلةٍ عما يدور في هذه الفترة العصيبة من أحداث دامية. غير أنه لاحظ قلقاً ما في عيني زوجته فسألها بهدوء:

-"كأنّ شيئاً ما يؤرقك... يا غالية.؟!".

أنعش روحها بكلمة "غالية" التي اعتاد أن يناديها بها تعبيراً عن حبٍ كبيرٍ جمعهما قبل سنوات عديدة. شعرت أنّ روحها تعانق روحه. قالت بهدوء:

-"يقولون إنّ في القرية خليّةٌ إرهابيةٌ نائمة..!!".

-"من أين جئت بهذه المعلومة؟!".

- "بعض النسوة ذكرن أنّ ثمة سيارات فيها مسلحون يجوبون القرى في الليل... وأنّ بعض الناس مثل "حمدوش المهرّب" يزودونهم بمعلومات عن أبناء القرى ممن يعملون في الجيش والشرطة...!!".

فكّر قليلاً ثم قال:

- "ولكن حمدوش مهرّب كبير، وله علاقات واسعة مع بعض رجال الجمارك والشرطة.. فهو عبد للمال وللسيارات الفارهة.. ربّما يكون قد غيّر اتجاهه تبعاً للظروف.!!".

- "والله، لا أعرف... يقولون هذا... إنّ بعض الظنّ إثم...!!". قالت الزوجة.

***

وجد نفسه أمامهم، في غرفة شبه مظلمة، أزاحوا العصابة والكمامة... وأعطوه ورقةً، طلبوا منه أن يحفظ ما فيها، فبعد قليل سوف يصورونه وهو يرفع هويته العسكرية أمام الكاميرا كما قالوا...!!.

ثمّة ثياب مبعثرةٌ، رثة، متسخة، وثمّة حبلٌ ثخين يتدلى من السقف، وعلى الجدار لوحة كبيرة عليها شعار وعبارة "جبهة النصرة". على الجدران ثمة بقع حمراء قانية لدم متجمد...!!.

نشب الخوف أظفاره في جسد "عبد المعطي". فهو غير خائفٍ على نفسه، من موتٍ يتوقعه، منذ شهور عديدة، في مواجهة العصابات الإرهابية، بل خوفٌ على صغاره وزوجته...!!. وراح يفكر:

-"كيف يستيقظون ولا يجدون أباهم... يسألون عنه أمهم، لكن أسئلتهم تبقى بغير أجوبة...!!.

تذكر كلمات قائد كتيبته له:

-"إذا كنت تشعر بالخطر، وتشك بوجود إرهابيين في قريتك والقرى المجاورة.... أرى أن تؤجل إجازتك...!!".

لكنّ عبد المعطي أكّد لقائده أنّ قريته هادئة وصغيرة، ولا مكان فيها للخونة... أعطاه القائد ورقة الإجازة، واندفع يعانقه ويشدّ على يديه على أمل اللقاء... وقال له:

- "أنت بطل... لقد أبليت بلاءً حسناً في معاركنا مع هؤلاء المجرمين... سنفتقدك كثيراً يا رقيب عبد المعطي..!!".

شعر بالفخر العظيم وهو يسمع هذه الكلمات... فأدّى التحية وانصرف...!!.

قطع شريط أفكاره أصوات أمام الباب. فُتح الباب الحديدي واندفع إلى الداخل ثلاثة رجال... خاطبه أحدهم بقوله:

-"عبد المعطي الشامي... قف هناك... وارفع هويتك بيدك... وعندما أعطيك الإشارة تقول ما قرأته في الورقة... " أنا الرقيب عبد المعطي الشامي من مرتبات الفرقة الثالثة أعلن انشقاقي عن الجيش وألتحق بجبهة النصرة...إلخ لابد أنك حفظت الكلام...؟!!".

-"لا لم أحفظ شيئاً...!!. أنا لست مُنشقّاً..!!".

قال عبد المعطي، بينما انتفخت أوداجه وجحظت عيناه، وهو يخاطب المسلّح، الذي بدا وكأنّه قائد المجموعة..!!.

-"عبد المعطي... يا عبد المعطي... كن هادئاً... نعطيك شرف الانضمام إلينا فترفض... لا، هذا كثير...!!."

وضع المصوّر الكاميرا الكبيرة على الأرض، دون أن ينبس ببنت شفة. غير أنّ الرجل الثالث تقدم من عبد المعطي وبصق في وجهه وهو يقول:

-"تفو عليك يا كلب...!!".

ثمة إطلاق نار كثيف حول البناء... خرج الرجال الثلاثة بسرعة. أقفلوا الباب.

عبد المعطي، وحده، يشعر بالغيظ والغضب والحزن والقهر. لكن قال في نفسه:

-"الإنسان يموت مرّة واحدة... لن أفعل ما يريدونه مني... أنا

عبد المعطي الشامي ابن محمد الشامي... وجدي عبد المعطي الشامي المجاهد ضد الاستعمار الفرنسي... أعلن خيانتي للوطن... هذا لن يحصل أبداً...!!".

أصوات رصاص، وصراخٌ غير مفهوم، وهدير سيارات...!!. ثمة معركة تحصل في الخارج.

أصوات على الباب. هدير سيارة كبيرة أو عربة عسكرية مجنزرة.

صوت واضح يسمعه عبد المعطي:

"يا شباب... تعالوا... انظروا هنا... "سجن التوبة رقم 4... جبهة النصرة...!!".

كان الصوت أليفاً، كما بدا له. صرخ بأعلى صوته وهو يقترب من الباب:

-"يا شباب... افتحوا الباب... أنا هنا سجين...!!".

قال صوت من الخارج:

-"اسمعوا... صوت ينادي في الداخل...!!".

-"ابتعد عن الباب... سنطلق النار على القفل... طاق... طاق... دفع جندي من الخارج الباب برجله... انفتح الباب... البنادق ممدودة نحو الداخل... صوت يصرخ:

-"ارفع يديك...!!".

يرفع عبد المعطي يديه.... ويصرخ:

-"أنا الرقيب عبد المعطي الشامي.. الفرقة الثالثة..!".

أنزل الجنود بنادقهم... قال أحدهم:

-"تفضل معنا... سنسمع قصتك فيما بعد يا رفيق... الحمد لله على سلامتك...!".

الأمير... وعائشة

المعلم الوحيد، في مدرستنا، الذي لم يستلمْ بندقيةً، ولم يُسجّلْ اسمه في صفوف الدفاع الشعبي، لحماية الحي، هو الأستاذ (عبد الرحمن عبد الرحمن). فالرجل لا يحبّ السلاح، كما يقول ويكرّر القول، إنّه لم يحمل سكيناً في حياته، ولم يذبح فروجاً، ويكره اللون الأحمر كثيراً جداً....!!. ولقد ذاع صيت الرجل، والحق يُقال، كمدرّسٍ قديرٍ للغة العربية، في حارته والحارات المجاورة.

كانت حياة عبد الرحمن من البيت إلى المدرسة، وبالعكس. فهو قلما يخرج إلى السوق ليشتري شيئاً ما، فزوجته تقوم بشراء حاجيات المنزل كلها، ومنها ثياب عبد الرحمن.

يُمضي عبد الرحمن وقتاً طويلاً في المطالعة، ففي بيته الصغير، مكتبةٌ كبيرةٌ. ويقول إنّه قد كتب عدة كتب ما تزال مخطوطةً لديه، عن اللّغة العربية وأسرارها، ويتمنّى لو تقوم جهة ما بتبني طباعة ونشر هذه المخطوطات، لاسيما تلك التي تتحدث عن بعض ألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها.

قبل أسبوعين من تلك الحادثة المؤلمة، اشترى عبد الرحمن سيارةً صغيرةً مستعملة، بعدما حصلت زوجته، التي تنتمي لعائلة عريقة في المدينة، على حصتها من إرث أهلها.

عندما همّ بالنزول من السيارة، أمام بيته، عائداً من عمله، ذلك اليوم، اعترضه شابان ملتحيان، يحمل كل واحد منهما بندقية آلية....

-(ألست الأستاذ عبد الرحمن..؟) سأله أحدهما، سؤال العارف بأنّه الشخص المطلوب..!

-(نعم ...أنا هو..) ردّ، وهو يتفحص وجهي الرجلين.

-(تفضلْ معنا... الأمير يريدك....) قال المسلّح بحزم.

-2-

-(أنا... لكن... لماذا؟!) خرجت كلماته مبعثرة، مرتجفة.

لم يترك المسلّحان فرصة له للاحتجاج أو الاستفسار، فخطف أحدهما من يده مفتاح السيارة، وأشار إليه أن يجلس بجانبه، بينما أخذ المسلح الآخر مكانه في المقعد الخلفي.

انطلقوا خلال الشوارع الضيقة في تلك الحارة في المدينة القديمة.

راح الأستاذ يتمتم بآيات من القرآن الكريم، وهو يفكّر من يكون هذا (الأمير) وما الذي يريده منه؟!، شعر بالخوف، وهو يستعيد بذاكرته حكاياتٍ مرعبةٍ كان قد سمعها عن هؤلاء...!!

توقفت السيارة أمام قصر حجريّ قديم هو متحف المدينة الشعبي، قبل أن يدخل الإرهابيون الحيَّ ويعيثون فساداً فيه. طلب منه أحد المسلّحين أن يتبعه، بينما مشى المسلّح الآخر خلفه.

ثمة ردهة فسيحة في الطابق الثاني، فيها مسلّحون ملتحون، بعضهم واقف، وآخرون جالسون. وثمّة باب عليه لوحة مكتوب عليها (الأمير) دق عليه أحد المسلّحين المرافقين لعبد الرحمن، وانتظر ثوانيَ قبل أن يفتح، بعدما تلقّى إذناً بالدخول.

-(السلام عليكم) قال عبد الرحمن بصوتٍ مخنوق.

ردّ الرجل الجالس أمام المكتب بصوت منخفض، بينما لم ينبس الرجل الجالس خلف المكتب ببنت شفة.

أشار الرجل الجالس أمام المكتب إليه أن يجلس قبالته، بينما بقي المسلحان واقفين قرب الباب.

تنحنح الرجل الجالس قبالة عبد الرحمن، فاهتزت لحيته، ثم فتح فمه ليقول:

-(أأنت ألأستاذ عبد الرحمن؟!)

-(نعم.... أنا... عبد الرحمن!!)

-(حسناً يا بني، ما سمعته عنك من ورع وتقوى، يجعلني أبارك لك من كل قلبي... فأنت أهل لكل خير.....)

- 3-

-(تبارك لي.... بماذا يا شيخ؟!) سأل عبد الرحمن باستغراب.

تجاهل الشيخ السؤال وقال بنبرة أعلى:

-"ولكن أين لحيتك يا بني.. لا يجوز أن تبقى حليقاً وتتمثل الكفار.. أعتقد أنّك سوف تتدارك الأمر، فتطلق لحيتك كما يجب".

توقف الشيخ عن الكلام قليلاً، ثم قال، وكأنه يتصنع الهدوء:

-(يسرني أن أبلغك أنَ الأمير، حفظه اللّه، ...) وأشار بيده إلى الرجل الجالس وراء المكتب... (قد قرّر الزواج من ابنتك...).

ذُعر عبد الرحمن، توزعت نظراته بين (الشيخ) وبين (الأمير) الصامت. وتذكَر عبد الرحمن أنّه قد رأى هذا الوجه... ولكن أين؟!

(ولكن، يا شيخي، يبدو أنً هناك خطأ ما في الموضوع، فأنا ليس لدي فتاة في سن الزواج...) قال عبد الرحمن بثقة .

(أو لست عبد الرحمن ابن محمد عبد الرحمن..) سأل الشيخ بصوت حاد.

وتابع (أليس عندك فتاة اسمها عائشة..؟!)

جمد الدم في عروقه، وعندما وجد صوته قال:

(نعم... ولكن...!!)

(ولكن ماذا؟!) سأل الشيخ بانفعال.

(عائشة.. ما تزال طفلةً لم تكمل الأربع عشرة من عمرها... ولم... لم ينبت ثدياها بعد...) قال عبد الرحمن بصوتٍ مرتجفٍ ومتوسل.

(ها... ها..ها) ضحك الشيخ، فبانت أسنانه الصفراء، ثمَ التفت إلى عبد الرحمن، وقال بلهجة جادة:

(ألست مسلماً.؟! أوليس النبي صلوات الله عليه قدوتك؟!)

(نعم.. نعم) أجاب عبد الرحمن مؤكداً.

(أولم يتزوج أمَنا عائشة رضي الله عنها، وهي صغيرة في السن..!!)

(نعم.. حصل هذا ولكن..!!)

-(الأيام تغيرت.. والناس تغيروا يا شيخ، أقصد بنيتهم الجسدية تغيرت.... عائشة طفلة..!!)

قطّب الشيخ حاجبيه، وقال:

-(لا.. بدأت تغلط .. كفى هذراً) وتوجه نحو المسلحين، وقال:

-(دعوه في الخارج.. واحضرا الفتاة لأعقد القران....)

فكّر عبد الله، والألم يعتصره، وهو غير مصدق ما يحصل، أين شاهد هذا (الأمير)؟!

تّذكّر.. نعم إنّه هو، كان فيما مضى يبيع المازوت مع أبيه في الحارة... وقبلها كان أحد تلامذته، لقد كان تلميذاً كسولاً ومشاكساً).

غيمة سوداء أمام عينيه. ثمّة غابة كثيفة، فيها أفاع وذئاب، وعائشة وحيدة فيها، نهض بحركة لا شعورية مدّ يديه يريد أن يحمي، ضم عائشة إلى صدره ليحميها، غير أنّ المسلح الواقف بجانبه دفعه بقوة، وهو يصرخ:

-(اجلس.. لا تتحرك..)

تندفع عائشة نحوه، تطوق رأسه بيديها الناعمتين، وتسأله بفرح طفلي:

-(متى ستأتي لي بالدراجة التي وعدتني بها....؟)

غطّى وجهه بكفيه، وانهمرت الدموع حارَةً. أحسّ أنّ كلَّ شيءٍ ينهار.

بعد نصف ساعة، حسبها دهراً، دخلت فتاةٌ يحيط بها مسلحان، وقع نظره عليها.. اندفع نحوها، تعلّقت به.....

-(لن تأخذوها..) صرخ بأعلى صوته..

سحبه المسلّحان إلى الخلف، ودفعا الفتاة نحو الداخل.

(اتقوا اللّه... إنها طفلة.. طفلة.. يا ناس..)

اختلط صوته بصوتها:

-(أبي ....أبي..)

-(إنها طفلة... طفلة يا ناس...)

زهر النرجس

كانت أشعة شمس الصباح في ذلك اليوم من شهر آذار، تحمل الدفء والحنان، بعد أيام ماطرة. لآذار حضور وذكرى عند "كرمو" عامل النظافة. ففي هذا الشهر قبل ثلاثين سنة تزوج من ابنة الجيران "سميرة" التي يكبرها بعشر سنوات. يومها، قالت له أمه:

-"سميرة صغيرة... وستنجب لك دزينة " من الصبيان والبنات....."

لكنّ سميرة لم تنجب سوى "أحمد"، الذي تطوّع ضابطاً في الجيش، بعد فورة حماس قبل سنوات، على الرغم من أنه وحيد والديه ومعفى من الخدمة الإلزامية..!!

-"يا الله.. كم تمضي السنون بسرعة...!!"

قال كرمو محدّثاً نفسه. اليوم هو الجمعة، عطلته الأسبوعية، يتمشى قليلاً على سطح المنزل. ثمة هدوء طاغ، بشكلٍ مريب. فالحركة ما تزال قليلةً جداً في الشارع، لكن

حـرارة الشـمس تـزداد ، ولا بـأس أن يحضـر والدتـه مـن غرفتهـا ليحتسيا "المتة" على السطح.

لقد اعتاد الإرهـابيون، في الأشهر الماضية، أن يمطروا الأحياء المجـاورة لحمـص القديمـة، بالرصـاص والقـذائف. غـير أنهـم، منـذ أسبوعين، توقفوا عن ذلك لسبب غير معروف...!!

البعض يقول إنّهم استنفدوا ذخائرهم، ولكن أغلب الظن أنّ الإرهابيين قد يئسوا من إجبار الناس هنا على ترك منازلهم...!!

ألقى نظرةً فاحصةً على الأبنية المقابلة، التي تبعد مئات قليلةٍ من الأمتار عنه والتي تتمركـز فيها المجموعات المسلحة، فلم ير شيئاً. نزل الدرج.. أمسك بيد أمه وساعدها في الصعود إلى السّطح، بعدما أعد كأسين من المتة.

ثمة حوضٌ على طرف السطح، ملآن بأزهـار النـرجس التي تعطّر المكان برائحتها الزكية، التي تحبّها والدته كثيراً.

" اللّه.. ما أجمل هذه الرائحة يا كرمو..!!"

قالت الأم بصوت مندهش، وأضافت:

"بعد أيامٍ قليلةٍ، تحلّ الذكرى الأولى لوفاة أبيك، فما رأيك أن نزور ضريحه، ونضع باقةً من النرجس عليه.. رحمه اللّه "كان يحب النرجس مثلي..!!"

-"حاضر... لك ما تريدين يا أمّي!!"

يجيب كرمو، مباركاً الفكرة.

-"اللّه يرضى عليك يا بني.. اللّه يحمي ابنك أحمد.. وزوجتك سميرة".

توقفت لحظة عن الكلام، ثم قالت، وكأنّها تذكرت شيئاً ما:

-"هل تحدّث أحمد إليك.. ألا يزال في حلب؟! هل قال لك متى سيأتي.. منذ سنة لم يأت في إجازة.. فمتى يأتي؟!"

-"نعم حدّثني الليلة الماضية. كان يودّ التحدث إليك، ولكنك كنت نائمة.. هو يهديك السلام.. لا يزال في حلب.. هو ورفاقه يخوضون معارك عنيفةً ضد الإرهابيين في أحياء حلب الشرقية.."

اللّه يحميه ويحمي جيشنا.. صحيح تذكرت... أوصيك يا كرمو أن تعطي أحمد الليرات الذهبية الأربع، وهي ما تبقى معي من المصاغ الذي أهداه والدك لي يوم زفافنا. لقد اعتاد أن يعبث بها ويتفرج عليها عندما كان صغيراً.."

يفرك كرمو عينيه. يتناول كاس المتّة، يأخذ جرعة منه ويقول:

" العمر الطويل لك إن شاء اللّه يا أمي.." ويتابع بهدوء:

" المعارك حامية الوطيس في حلب يا أمي.. اللّه ينصر جيشنا.."

تنظر العجوز التي أكملت التسعين من عمرها، إلى السماء، تفتح يديها وتلهج بالدعاء:

" يا رب.. يا قاهر الظالمين المعتدين وحامي المظلومين.. نتوسل إليك أن تردَّ كيد المعتدين الإرهابيين إلى نحورهم.. اللهمّ شتتْ شملهم، وأنزلْ عليهم غضبك.. نتوسّل إليك ولا لأحدٍ سواك.. يا رب العالمين ..!!"

يقول كرمو بصوتٍ عالٍ:

" آمين يا رب العالمين!!".

تعلّق نظر كرمو بأزهار النرجس. فكّر بشيء ما، ثم سأل أمه:

" أمي.. لماذا تطأطئ أزهار النرجس رؤوسها.. بينما بقية الأزهار والورود شامخة نحو الأعلى..؟!!"

يسود الصمت للحظات قبل أن تجيبه، وعندما كان على وشك أن يكرر السؤال قالت الأم:

" الخجل، من الصفات الحميدة، يا بني. الفتاة الجميلة المهذّبة خجولة.. مثل زهرة النرجس.. ألم تذهب معنا إلى الحصاد يوم كنا في القرية.؟. ألم تر السنابل الملآنة بحبّات الحنطة تحني رؤوسها تواضعاً لله تعالى.. وكذلك النرجس.. وكذلك الفتيات العفيفات الجميلات..!!" .

دُهش كرمو لهذا الجواب، وقال بفرح:

-" الله.. ما أروعك يا أمي.. فكلّ سؤالٍ له عندك جواب يا أمّ كرمو..!!"

ينقلب المشهد فجأة.

زخات كثيفة من الرصاص من جهة الإرهابيين.. للحظات لم يعد يرى أو يسمع شيئاً. يصيح كالمخنوق:

-"يا اللّه.. أمي.. يا أمي.. نافورة دم في رأسها.. تسقط على الأرض.. يحملها.. وجهها مغطى بالدم.. أمّي.. يا أمّي.. يسحبها قليلاً.. يستجمع قوته ويحملها وينزل بها:

" أمّي.. يا أمّي..!!" صرخةُ قهرٍ وغضبٍ وحزنٍ تتلاشى.

***

تستقبل القرية الصغيرة، القريبة من المدينة، جثمان الشهيدة "أم كرمو" ...

يحملها الناس على أكفهم.. يرددون الأناشيد. تزغرد النساء.. كما هي العادة في تشييع الشهداء. أعدّوا لها قبراً بجانب قبر أبي كرمو..!!.

ثمة رجل يحمل باقتين كبيرتين من النرجس، يضع واحدةً على قبر أمّه والأخرى على قبر أبيه. وثمة اسمٌ جديد نقش على اللوحة الرخامية التي تحمل أسماء شهداء القرية هو:

" الشهيدة منيرة العيد -أمّ كرمو" 1923 -2013"

إجازة ليوم واحد ...!!

ذلك الصباح في تلك الدائرة كان متميّزاً. ثمة هرجٌ ومرجٌ وأحاديث جانبية، واسم "عائدة" يتردد على كل شفةٍ ولسانٍ من الموظفين والموظفات.

" سوف تأتي لنا بالحلوى والسكاكر.. وسيأتي معها "المحروس" زوجها الثاني.. اتّصلت وأخبرتني بذلك...!!".

أشاعت هناء الموظفة التي تعمل مع عائدة في "قسم سندات الملكية" الخبر في الدائرة. وتابعت وهي تقول متفاخرة...!

"بالرفاء والبنين... علينا أن نعمل لها زفّةً... ما رأيكم؟!"

مطّ أحد الموظفين رقبته داخل الغرفة وسأل:

-"من الذي سيأتي معها..".

أجابت هناء ضاحكةً:

-" أكيد زوجها الجديد... ولست أنت يا ذكي..!! "

***

عندما سمع مدير الدائرة بالخبر استدعى رئيس القسم الذي تعمل فيه عائدة، وفور مثوله بين يديه سأله:

-"ماذا لديك في القسم؟!!.

-"لا شيء غير عادي يا أستاذ...!!"

-"كيف لا شيء غير عادي.. ما قصة "عائدة "؟!".

بلع رئيس القسم ريقه وقال:

-"طلبت أول أمس إجازة ليوم واحد... قدمتها لي، وأنا بدوري اقترحت على سيادتكم الموافقة... وسيادتكم وافقتم...!!"

-"وهل كنت تعرف سبب الإجازة؟!"

تلكّأ رئيس القسم قبل أن يجيب المدير:

"قالت لي إنها سوف تعقد قرانها...!!".

احمرتْ عينا المدير وانتفخت أوداجه ورمق الرجل الواقف أمامه بنظرةٍ ذات مغزىً وانقضّ عليه بسؤال:

"ولماذا لم تخبرني بذلك..؟!!".

لم يدر الرجل بماذا يجيب، لكنه قال بعد صمت قصير، بهدوء:

"لم أدرك أن الأمر مهمٌ ويستوجب أن أخبر سيادتكم به...!!"

انقضّ عليه المدير بسؤال ثانٍ:

"هل قالت لك من هو "سعيد الحظّ" الذي اختارته؟!"

أجاب رئيس القسم على الفور:

" لا واللّه... لكنّها ألمحت إلى أنّه بطل مثل زوجها الشهيد...!!"

" ألم أقلْ لك، أكثر من مرّةٍ، أريدك أن تخبرني بكل كلمةٍ أو همسةٍ في قسمك... يبدو لي أنك لست أهلاً لرئاسة قسم...!!".

***

كانت عائدة في عامها الخامس والعشرين، عندما استشهد زوجها، في مواجهة شرسة مع العصابات الإرهابية في ريف حلب الشرقي، تاركاً لها طفلاً في الثالثة من العمر. وقد أبلى بلاءً حسناً، فكان رامياً لدبابة، وقال عنه قائده وهو يعزي باستشهاده:

" لقد فقدنا، بفقده، أمهر رامٍ في اللواء.. لقد دكّ أوكار الإرهابيين.. وكانت كل رماياته تصيب أهدافها بدقة ...!!".

ثمة صورةٌ لرجلٍ بلباسه العسكري أمام دبابة.. هو "أحمد" زوجها الشهيد الذي تفخر به، معلقةٌ على جدار غرفتها. والصورة نفسها تزين مدخل المدرسة التي سميت باسمه.

وعائـدة، صـبية حسـناء، فارعـة الطـول، عيناهـا خضـراوان وشعرها أسود فاحم، ووجهها مدوّر، كرغيف الخبز الخارج لتوه مـن التنـور، كمـا اعتـادت حماتهـا أن تقـول. وكانـت الحمـاة سميحـة، الـتي تـدعوها عائـدة "الخالـة سميحـة "، تقـيم معهـا ومـع أحمد، منذ زواجهما بنـاءً علـى طلـب سميحـة، الـتي رأت فيهـا أمّـاً لها، حيث فقدت أمها وهي طفلة صغيرة. وقد كررت سميحة أمام عائدة، بأسف وحزن عبارتها التي باتت مألوفة:

" لو كان لدي ابن أعزب لزوجناك له، أنت كاملة الأوصاف.. أي واللّه.. جمال وأدب وحشمة.. وأخلاق عالية.!"

وتردف الحماة قائلة:

"أوصيك يا ابنتي أن تنتبهي لنفسك...!!"

وكانت عائدة ترد على حماتها بكلمات قليلة، فتقول:

"مـن ينظـر إلـي نظـرة سـوء.. سـوف تنـال فـردة حـذائي مـن رأسه.. !!".

وكانت الخالة سميحة تُسر لهذا الكلام.

***

غير أن عائدة بدأت تشرد، ولعلها تفكر بشيء ما. كانت تحلم ببطل مثل "أحمد". وتعتبر نفسها مسؤولة عن كل كلمة تقولها أو تصرف تقوم به، لأنّها زوجة شهيد. فهي تواظب على عملها الوظيفي بعدما جاء قرار تعيينها هنا في دائرة السجل العقاري، لأنها زوجة شهيد. وأول عمل قامت به أنها أعادت ارتباطها بالدراسة الجامعية في كلية الحقوق.

في الدائرة لم يبق زميل أعزب أو متزوجٌ، إلاّ وحاول التقرّب منها. وأول من فعل ذلك كان مدير الدائرة، الذي أسمعها كلمات تنمّ عن إعجاب شديد بها، وأنه مستعدّ لتلبية كلّ طلباتها لو وافقت... وأنه مستعد أن يطلّق زوجته من أجلها...

وقبل أن يسترسل في عرضه، قاطعته قائلة وهي تخرج من مكتبه:

"أستاذ... أنت مدير.. وأنا موظفة...!!"

اعتذر المدير ولم يرها بعد ذلك، إلا من بعيد.

غير أن بعض الموظفين والموظفات في الدائرة، لم يتركوها بحالها.

"كأنها مديرة... إنسانة غامضة ومعقدة.. لا تضحك ولا تبتسم...!!"

قالت إحداهن:

" فيها شيء مدهش.. عندما تمشي فإن لمشيتها هيبة، ووقعاً على الأرض. وعندما تفتح فمها، فإن كلماتها القليلة.. من الذهب الخالص... ليتها قبلت الزواج من أخي...!!".

قال أحدهم:

"أنا جامعي، وأعزب، ولديّ بيت واسع... ولم تقبلْ بي.. لعلّها اختارت رجلاً رائعاً بكل المقاييس...!!"

***

عندما أطلّت عائدة من باب الدائرة، بلباسها الأسود الجميل، كانت تتأبّط ذراع رجل طويل يتعثر في مشيته، يرتدي اللباس العسكري، وكان واضحاً أنه أصيب في رجله اليسرى...!!.

راح العروسان يدوران من غرفة إلى أخرى، يوزعان الحلوى والسكاكر، وسط ذهول الجميع، بينما كانت العروس تردد عبارة:

"زوجي الجريح البطل ثائر...!!".

أبو فرحان ...!!

هذه قصّتي. كثيرون سمعوا بها مني، وكثيرون سمعوا بها من غيري. وهي مثل قصصٍ كثيرةٍ، يتناقلها الناس عن الحرب ومواجهة العصابات المسلّحة. لكن ما يجعل قصّتي تنتشر، باعتقادي، هو إصراري أن يسمعها أكبر عدد من الناس، في منزولي، الذي رمّمْته مع بقية غرف المنزل.

عُدتُ إلى بيتي الكبير، في القرية، بعد فرقة عامين، وكلّ عامٍ حسبْته ألف سنة. البيت شبه مهدّم، غرفة المنزول الكبيرة سقط جزء من سقفها. وثمّة قذيفةٌ أحدثت فتحةً كبيرةً في الجدارِ الجنوبي لغرفة الأسرة وأودت بالنافذة. أمّا غرفة المطبخ فقد تضرّرت بشكلٍ أقلّ. كان منظر المنزل يدعو للحزن، ويثير، في النفس، الحقد، والثأر، من تلك العصابات التي تقتل وتدمّر... أينما وُجِدَتْ.

ساعدتنا الحكومة في ترميم منازلنا، نحن أهالي قرية "عين الدنانير". ولابدّ من القول إنّه ليس فيها دنانير، ولكن ثمّة بقايا لعين ماءٍ قديمة، ربّما جعلت الناس يستوطنون هنا.

عندما حاصرت المجموعات المسلّحة، القرية، من جهة الشرق، قاومنا هنا، رجالاً ونساءً وفتياناً، بمساعدة الجيش، وعملنا "خط دفاع"، كما يقول العسكريون. المناوشات التي تحصل بيننا وبين تلك العصابات، تجرح وتقتل الناس في بيوتها، أو في الأرض الزراعية. ولكنّنا قتلنا وأصبنا الكثير من أفراد تلك العصابات، التي كانت تهاجم القرية بين حينٍ وآخر، فتصطدم بالمقاومة العنيفة، فتتراجع مدحورة. وعليّ أن أقول إنّه لم تبق أسرةٌ في القرية إلاّ وقدّمت شهيداً أو جريحاً.

لم نتمكّن من العمل في الأرض الشرقية. لكنّنا تابعنا العمل في كروم العنب واللوز والزيتون، في الأراضي الواقعة غربي القرية وجنوبها. و ــ أقول أنا حمدان الخضر ــ بأنّ ما آلمني هو خروج بعض الأسر، من القرية، في بداية الحصار.

في حال، كهذا الذي أحدّثكم عنه، لا يعرف المرء متى تأتيه رصاصةٌ غادرة، من قنّاصٍ محترف، أو قذيفة غادرة، تهدم المنزل فوق رؤوس أصحابه. وجاءت جريمة المدرسة الابتدائية، كأفظع جريمة تتعرّض لها القرية. فقد سقطت عدة قذائف إرهابية، على التلامذة، لتقتل ثلاثةً منهم وتجرح عدداً آخر.

وبرزت المشكلة: "كيف نشيّع الشهداء التلاميذ... والقذائف مستمرة... ورجالنا يتصدّون للمجاميع الإرهابية.. وانتظرنا حتى الليل حيث شيّعنا الشهداء الأطفال إلى مثواهم الأخير، في الجزء

الجنوبي من المقبرة المخصص للشهداء. كان حفيدي "أحمد" بين الشهداء الأطفال. عندما وضعناه في الغرفة، كان الدم متجمداً في فمه وفتحتي أنفه. يبدو أنّ شظيّةً صغيرةً اخترقت رأسه من الخلف والأسفل. وعندما جاؤوني بحقيبته المدرسيّة، كانت شطيرة الزعتر والزيت لا تزال محفوظةً في كيس من النايلون، لم تمهله القذيفة الغادرة حتى يتناولها. وثمّة زجاجة صغيرة في الحقيبة لا تزال ملآنةً بالماء.

من بين كلّ الأحفاد، كان أحمد الأقرب إلى قلبي. كان يمرّ في الصباح، قبل ذهابه للمدرسة، كي يسلّم عليّ، كنت أعطيه خمسين ليرة... وأنا أقول له: "ذكّرني.. في أيّ صفٍّ أنت؟!".

" في الصف الثالث... يا جدّي...!!".

ثم أقول له وهو يقفز باتجاه المدرسة:

"أريدك الأول في الصفّ... يا أحمد...!!".

ويجيبني، دون أن يلتفت نحوي:

"أنا الأول في الصف... قالت المعلّمة..".

أفتّش في دفاتره فأجد على غلاف كلّ منها بطاقةً مكتوباً عليها اسمه وصفه.

عندما خرجنا من القرية، بملابسنا، كما يقولون، إثر هجوم المئات من المسلحين الملثمين، وصلنا القرية المجاورة، ومنها ركبنا سيارةً إلى مدينة حمص.

في بيت شقيقي في حيّ الخضر، كنّا، نروي ما حصل. كانت دموع الحقد والغضب، تنثال من أعيننا.

قال شقيقي:

"أنت يا أبا فرحان، شقيقنا الأكبر. لك صدر البيت، ولنا العتبة... رجلٌ مثلك حرامٌ أن يُضام...!!... هذا الطابق الأرضي... تحت تصرفك أنت ومن معك من أفراد الأسرة... سأنتقل للسكن في الطابق الثالث، حيث لا أحد فيه..!!".

أنا أبو فرحان الخضر... أتشرّد، في آخر العمر... لحظات القهر والحقد تكاد تقتلني.

أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى قائد الوحدة العسكريّة، المتمركزة على طرف القرية. قلت له:

"أريد بندقيةً أو رشاشاً...!!".

أجابني وهو يهزّ رأسه بالموافقة قبل أن يقول:

"هذا حقّكم. سنوزع السلاح لكل قادرٍ على حمله في القرية. لكن نريدك أن تشعل الحماس في نفوس الناس، كي يصمدوا... وأنت أهل لذلك، كما يقولون عنك..!!"

كان اسمه العقيد عبد الحق النفوري، من مدينة "النبك"... رحمه الله، فقد استشهد وهو يقاوم الإرهابيين، في أثناء صدّ الهجوم على القرية. كنت أزوره، بشكل يومي، في المساء، من أجل التنسيق بيننا وبين وحدته، لمقاومة المسلّحين.

سألني ذات مرّة:

"كم عمرك يا أبا فرحان؟!".

وعندما أجبته أنّني في السبعين، قال:

"ما شاء الله... حسبتك في الخمسين...!!".

قال وهو يصبّ كأساً من الشاي ويقدّمه لي.

قلت:

"هل تعلم، يا سيادة العقيد، أنّ هذا العبد الفقير لله تعالى، له سبعة أولاد وسبع بنات، وعشرون حفيداً...!!

لقد زوّجني والدي في السابعة عشرة من عمري".

يقول بتعجب:

"وكلّ أولادك وبناتك من زوجةٍ واحدة...؟!"

"نعم... وخالتك أم فرحان لا تزال صبيّةً..!!".

ضحك وضحكت.

كان اللقاء الأخير بيني وبينه، رحمه الله.

واليوم، بعدما عدنا للقرية، وهزمنا الإرهابيين، وعادت الحياة لمجراها الطبيعي، فإنّني سأنفّذ وعدي للشهيد العقيد عبد الحق بأن أزور أسرته وأتعرّف عليها في مدينة "النبك"، وسوف أذكر ما كان بيني وبينه من مودّةٍ وتقدير. فعندما سمعت نبأ

استشهاده شعرتُ أنّني فقدتُ ابناً لي. وسوف أقول لأسرته إنّني أودّ زيارة ضريحه، وقراءة الفاتحة لروحه الطّاهرة. سأقول له:

"لولا دمك الطّاهر، ودماء الشهداء لما هزمنا الإرهاب... وعدنا إلى بيوتنا...!!".

أجلس على سطح البيت. الحركة في القرية ناشطة. إنّه موسم الفلاحة، بعد الأمطار المبكّرة هذا العام. مشهد يبعث الثقة بالنفس، يختلط مع مشهد آخر، طارئ، هو مشهد العصابات الهائجة. غير أنّ المشهد الأول يطرد المشهد الثاني... فهو مشهد الحياة والعمل.

هذا أنا، أبو فرحان الخضر، أحمد الله تعالى، وأفخر بشهداء بلدي، وجيشه، لقد انتصرت سورية.

يقطع شرودي صوت مكبّر الجامع في بلدة "المشرفة":

"يا إخوان... جثمان الشهيد عمار رزوق يصل الساعة الواحدة...!!". الله يرحمه. أسرة رزوق أعرف الكثيرين منها. ترى ابن من يكون هذا الشهيد؟! سأذهب للمشاركة في تشييعه. المعركة مستمرة. لن ندع إرهابياً واحداً في سوريتنا... قسمٌ يردّده السوريون.

حضن الوطن ...!!

كان منعطفاً حادّاً في حياته، عندما عاد خالد زريق إلى عمله في "شركة المغازل والمناسج"، بعدما تركها لعدة أشهر. في أوّل يومٍ له، بعد عودته، كان يتهيّب النظر في وجوه رفاقه العمال. لكنّ ما حصل بدّد مخاوفه، فقد رحّبوا به، وقالوا إنّهم مشتاقون إليه...!!. غير أنّ أحداً لم يسأله عن سبب انقطاعه عن العمل هذه الأشهر الطويلة...!!. أتراهم سمعوا بقصته، ويتجاهلون سؤاله عنها عمداً، كي لا يجرحوا مشاعره؟!. ربّما كان الأمر كذلك. المدير العام للشركة، وحده، ربما يعرف سبب غيابه فقد طلبه وقال له:

"أنت من أفضل عمالنا، وأنا مسرور لعودتك إلى العمل.

قبل أسبوع، اتخذ قراره. تقلّد جعبته وحمل بندقيته، وتسلّل، عند الفجر، باتجاه الغرب. أفراد المجموعة يغطون بنومٍ عميق بعد ليلٍ حافلٍ بالمناوشات مع حواجز الجيش التي تحيط بهم من الغرب والجنوب.

يتسلّل بين الأشجار، بمحاذاة الساقية، ولأول مرّة منذ أشهر، يشعر بجمال الأشجار التي تنعكس غصونها على صفحة ماء الساقية في هذه الليلة المقمرة. ويقول في نفسه: "ما أجمل غوطة الشام...!!". غير أنّ الخوف عاد إليه، فربّما أردتْه رصاصة من جهةٍ ما، أو ربّما لم يتعرّفْ عليه الرجال في "حاجز الجيش"... فهل يصل بسلامٍ إلى دمشق، ويسأل عن المكان المقصود كي يسوّي وضعه؟!.

كان خلال الأيام الماضية في حالةٍ من الندم والقلق والخوف فهو نادمٌ لأنّه هنا، مع هؤلاء القتلة، وقلقٌ لأنّه يفكر بعواقب العودة إلى الأهل، وخائفٌ من عقوبة تنتظره من السلطة المختصّة، لكن أيّة عقوبةٍ منها، لا تساوي شيئاً من هذا الجحيم الذي انزلق فيه في لحظة غاب فيها بصره وبصيرته.

وفكّر، أيّ سلام يردّده المسلحون في تحيتهم...!! أيّ نفاقٍ..!! "السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته" تحية السلام والمحبّة وطلب الرحمة والبركة، وليس من هذا شيء عندهم. يقتلون ويدمرون ويحرقون الأشجار، ويطردون الناس من بيوتهم... واستغفر الله العظيم ــ ويعتدون على النساء...!!. ثم يطلبون، بعد كل هذا، السلام والرحمة والبركة من الله...؟!!. كيف أنساق معهم إلى هذا الدرك من القذارة.... والخيانة...!! العفو منك يا الله... استغفرَ الله مراراً عديدةً، وهو يمشي بهدوء وتثاقل في ممرّ ضيّق يؤدي، ربّما، إلى أقرب حاجز للجيش.

والده، عبد اللّه، الفلاح المكافح الذي يعرفه أهالي الغوطة، ومنزوله يزدحم بالناس، وهو مختار البلدة منذ أكثر من ربع قرن، ومشهودٌ له بالصدق والاستقامة. فلماذا فعلت ذلك يا خالد؟!!.

هو السؤال الذي يحزّ عنقه، منذ أسابيع عديدة. كانت لحظةً نسي فيها كلّ ما تربّى عليه، عندما أعطاه "أمير المجموعة"، كما عرف لقبه فيما بعد، ورقةً من فئة المائة دولار...!! "كم تساوي هذه؟!" سأله.

"تساوي خمسة آلاف ليرة... وسيكون لك واحدة مثلها كل أسبوع...!!" يدسّ له السّم في العسل. كما اعتاد والده أن يردّد في أحاديثه مع الناس.

-"وماذا أفعل معكم...!!" سأل.

-"تجاهد معنا ضدّ الحكومة الكافرة... نريد أن نطبّق شرع اللّه... وأنت مسلمٌ مؤمن...!! أليس كذلك؟!!".

-"نعم... نعم... ولكن...؟!!".

ووجد نفسه يذهب معهم....!!.

ورأى بأمّ عينه كيف يطبّقون شرع اللّه. ففي أول يومٍ له معهم، جاؤوا بعدّة رجال وعدّة نساء، ممّن يزعمون أنّهم كفرة، وضعوا الرجال في غرفة، والنساء في غرفة أخرى. سلبوا ما معهم من مال ومصاغٍ... وفعلوا الفاحشة مع بعض النساء الجميلات...

لكنه، لم يشاركْهم عملهم هذا...!!. والمفجع أنّ بعض هؤلاء، جيران لهم أو أبناء بلدتهم... وجريمتهم أنّهم يحبّون وطنهم ويعملون في دوائر الدولة. "سامحني يا رب...!!".

يقول بصوتٍ مسموع.

يقترب شيئاً فشيئاً من الحاجز...

"قف... عندك.... لا تتحرك... ارفع يديك....!!".

صوتٌ يرعد من مكن قريب، خلف الأشجار.

توقف. رفع يديه إلى أعلى.

"تقدّم...!!".

تقدَّم ببطءٍ نحو الأمام.

أحاط به رجلان مسلّحان...

"من أنت.. ماذا تريد؟!!" سأله أحدهم.

"أنا كنت معهم... جئت لأسلّم نفسي...!!".

"وماذا وضعت قرب جذع الشجرة... عبوة ناسفة... ألسي كذلك؟!"

- "لا وضعت بندقيتي وذخيرتي... كي تصدّقوا أني جئتُ أسلّم نفسي...!!".

"هيّا معنا... لتجلب سلاحك وذخيرتك... لا تخف... لقد وصلتْ...!!".

المؤلف في سطور

- عيسى بن إبراهيم إسماعيل مواليد محافظة حمص /عرقايا/ 1958م .
- قاص وروائي وإعلامي (رئيس تحرير صحيفة العروبة سابقاً).
- عضو إتحاد الكتاب العرب ـ جمعية القصّة والرواية.

صدر له:

1 -الإنسان والأفعى، قصص، دار علا، حمص 1997م.

2 -حدث ذلك اليوم، قصص، الدار السورية للنشر، حمص 2004م.

3 -على الشاطئ الآخر، قصص، دار الإرشاد للنشر، حمص 2008م.

4 -أعلام القصة والرواية في حمص، دراسة وتوثيق، دار الإرشاد للنشر، حمص 2010 ط1. وط2 2017.

5 -ثلاثة شعراء أحاديث و ذكريات (محمد مهدي الجواهري – سليمان العيسى – أحمد أسعد الحارة) دار الينابيع 2017.

6 -رصاص في حمص القديمة، رواية، دار الينابيع دمشق ط1 2018 وط2 2019.

7 -مدن ونساء، رواية، دار الينابيع دمشق، 2018م.

المحتوى

الإهداء 5
تمهيد 7
حفل عشاء...!! 9
القلعة جارتنا...!! 15
العناق الأخير...!! 23
أبو عبدو الساعاتي 29
زغاريد رمزية 35
أبو رازي ....!! 41
موعد على الغداء 49
طوني وماريا 55
الرقيب عبد المعطي 59
الأمير... وعائشة 67
زهر النرجس 75
إجازة ليوم واحد ...!! 81
أبو فرحان ...!! 87
حضن الوطن ...!! 93
المؤلف في سطور 97

إجازة ليوم واحد: من قصص الحرب على سورية: قصص عيسى إسماعيل. – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2021 – 100ص؛ 20سم. – (سلسلة القصة؛3).

1 – 813.01 إ س م إ 2- 813.009561 إ س م إ
3- العنوان 4- إسماعيل 5- السلسلة
مكتبة الأسد